من روائع

أوسكار وايلد

اختيار وترجمة

عبده إسماعيل الطهطاوي

تقديم

د.حامد عبد الهادي

الكتاب: من روائع أوسكار وايلد

اختيار وترجمة: عبده إسماعيل الطهطاوي

تقديم: د.حامد عبد الهادي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الطهطاوي، عبده إسماعيل

من روائع أوسكار وايلد / اختيار وترجمة عبده إسماعيل الطهطاوي ,

تقديم: د.حامد عبد الهادي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٢٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٠٥٥ – ٩٩١– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢١٨٠٥ / ٢٠٢٠

من روائع أوسكار وايلد





تقديم

إن إعادة نشر هذا الكتاب يهدف إلى تحقيق ثلاثة أهداف معا: أولها إتاحة كتب نادرة ومهمة للقارىء، فالكتاب سبق أن صدر في طبعتين فقط، الأولى في القاهرة عام، وبعدها بثلاث سنوات صدرت منه نشر في بغداد، ومنذ عام ١٩٥٢ لم تصدر أية طبعة جديدة عن الكتاب، فهو إذن كتاب نادر.. وثانيها الاحتفاء بأعمال الكاتب الإيرلندين الشهير أوسكار وايلد.. أما ثالث الأهداف فيتمثل في شكل ما من أشكال رد الاعتبار لمترجم الكتاب، وهو الشاعر والكاتب عبده إسماعيل الطهطاوى، وكان شاعرا مجيدا ومترجما قديرا لم ينل ما يستحق من تقدير واهتمام.

المؤلف:

أما المؤلف صاحب الروائع وهو أوسكار وايلد واسمه الحقيقي «أوسكار فينجال أوفلارتي ويلز وايلد» فقد ولد في العاصمة الإيرلندية «دبلن»، في السادس عشر من شهر اكتوبر عام ١٨٥٤، و كانتْ والدتُه شاعرةً ثَوريةً مهتمَّةً بالفُنون، تنشر تحت

إسم مستعار، وكانَ والدُه السير «ويليام وايلد» كاتبًا و طبيبا رائدًا في جراحةِ الأُذنِ والعَين، وكان أوسكار الثاني من بين ثلاثة أبناء، وقد عُنِيا بتعليمِ ابنائهم وأَلحقاهُم بمَدرسةِ «بورتورا» الملَكية، أما أوسكار فقد حصل على منحة بعد أن تخرج في بمَدرسةِ «بورتورا» الملَكية، فالتحق بجامعةِ «ترينيتي".

وكان أوسكار الطفل مغرما بالأدب منذ الطفولة وأتقن تعلم الألمانية والفرنسية إلى جانب الإنجليزية منذ الصغر بفضل اهتمام أسرته ثم تعلم اللاتينية والإغريقية واتقنهما أيضا قبل أن يظهر تفوقا كبيرا في الدراسة في كلية ترينيتي، حيث طور حبه للأدب الكلاسيكي ومعرفته به ثم حصل على منحة للدراسة في جامعة أوكسفورد، حيث برزت قدراته الشعرية بشكل واضح وراحت قصائده تحتل مكانا خاصا في الصحف المحلية كما أصبح محط اهتمام واضح. وقد وصف وايلد دخوله هذه الجامعة بكونها منعطفا مهما في حياته.

وقد عرف عنه طريقته التي تميزة في اختيار ملابسه، إذ كان يختار ألوانا زاهية ويضع ورودا ويطيل شعره في تحد سافر لمجتمعه المحافظ غير أن هذه البدع جعلته يتميز عن جميع زملائه وأصدقائه في جامعة اوكسفورد وفي كل الأماكن التي ارتادها فيما بعد.

وبعدَ حصولِه على درجةِ البكالوريوس في نوفمبر ١٨٧٨م،

تنقَّلَ وايلد بين دبلن ولندن وباريس، وسافَرَ إلى أمريكا ليُلقيَ بضعَ محاضَرات، وهناكَ تزوَّجَ وأنجَبَ طفلَيْن، واضطرَّتهُ ظروفه المعيشية إلى العملِ مُراجِعًا في مجلَّةِ «بول مول»، ثمَّ صارَ محرِّرًا لمجلةِ «عالم المرأة»، ثم عاد للدراسة في أوكسفورد، إثر قرار من والده، وتزوج اوسكار في عام ١٨٨٤ من كونستانس لويد وأنجب منها طفلين هما سيريل وفيفيان. مات الأول في الحرب العالمية الأولى فيما عاش الثاني إلى سن الثمانين وأقامت الأسرة في لندن وتحول منزله إلى ملتقى يرتاده الأدباء والكتاب والمثقفون وكتب خلال تلك الفترة مجموعة قصص للأطفال منها "الأمير السعيد وقصص أخرى" وشبح كانترفيل في عام ١٨٨٧ ثم نشر دراسة تحمل عنوان "حقيقة الأقنعة عند شكسبير" وعمل بعدها مدير تحرير في مجلة "عالم المرأة" حيث كان يدافع عن قضايا المرأة وتحررها وهو ما ورثه عن والدته.

وفي نفس العام كتَبَ قصتَه «شبح كانترفيل»، وبعدَها بعامٍ أصدرَ مجموعةً تحتَ عُنوان: «الأمير السعيد وقصص أخرى»، تلا ذلكَ إصدارُ روايتِهِ الشَّهيرة «صورة دوريان جراي»، التي قُوبِلَتْ بهُجومٍ عَنيف، وأسهمتْ مسرحيتُه «مروحة الليدي وندرمير» في الاعتراف به كواحد من أهمِّ كُتَّابِ المَسرحِ الإنجليزي.

وفي عام ١٨٩٠ نشر وايلد روايته الوحيدة "صورة دوريان جراي" في مجلة ليبينكوت الأمريكية الشهرية، فأثار بها لغطا كبيرا ثم

ما لبثت الرواية أن نشرت في انجلترا في شكل كتاب لتبدأ شهرة وايلد الأدبية الحقيقية. و"صورة دوريان غري" قصة غريبة عن صورة يشيخ صاحبها كل يوم بدلا من بطل الرواية دوريان. والأنكى من ذلك أن كل الخطايا والفواحش التي يرتكبها الأخير تنعكس على الصورة وتجردها من جمالها ونقائها تدريجيا. وصاحب الصورة هو بديل دوريان الذي لا يريد رؤيته وعندما يدرك ذلك يقرر إتلاف الصورة ولكنه هو الذي يموت. ويعتقد البعض أن وايلد كتب عن مصيره هو نفسه في هذه الرواية.

ويتطرق هذا العمل إلى الخير والشر، ولكنه ملئ أيضا بالسخرية من المجتمع حيث يستخدم وايلد لغة تهكم لاذعة من المجتمع الفكتوري ويصور نفاقه وغروره بشكل كاريكاتيري حادة. ويرى نقاده أن وايلد أراد الدفاع في روايته عن فكرته عن الفن والجمال وعن مفهومه عن موقع الفنان "الفنان غير موجود إلا ضمن العمل" وهي فكرة سنجدها لدى بروست أيضا. ودليله في ذلك أن الحياة تقود الإنسان إلى الموت فيما يقوده الفن إلى الخلود. ولكن أي نوع من الخلود حققه وايلد؟

وشهِدَ عامُ ١٨٩٥م ظهورَ أعمالِه «امرأة بلا أهمية»، و«الزوج المثالي»، و« أهمية أن تكون إرنست»، و«سالومي" ويعترفُ أوسكار وايلد بأنَّ نقطتي التحول الكبيرتين في حياته كانتا

حينما أرسله والده إلى أكسفورد، وعندما أرسله المجتمع إلى السجن. يذكر أنَّ ما كتبهُ وايلد في رسالته قريب في محتواه من أفكار الزهاد الذين تتقاطع حياتهم مع الفنانين في خطوط كثيرة.

لكنَّ الشُّهرةَ والمجدَ اللذَين حصَّلهما تلقَّيا ضربةً مُوجِعةً إثرَ تقديمِه للمُحاكمةِ بتُهمةِ «المِثْليةِ الجِنسية»، حيثُ حُكِمَ عليه بالسَّجنِ معَ الأَشغالِ الشاقَّةِ لمدَّةِ عامَيْن.

وبعد خروجه من السجن شبه محطم غادر وايلد بريطانيا بشكل نهائي، ليمضي السنوات الثلاث الأخيرة من حياته في باريس في حال من البؤس والفاقة، حيث وجد صعوبة في العثور على مأوى لضيق الحال واضطر إلى التسول بشكل أو بآخر ممن يعرفهم وأمضى أياما طويلة يتسكع في الشوارع لا يعرف أين ينام، حيث انفض عنه كل أصدقائه ومعجبيه وهاجرت زوجته إلى ألمانيا مع ابنيها وغيرت اسم الأسرة لإلغاء اسم وايلد بسبب السمعة التي لحقت بها بسببه، وكان هذا الوضع المأساوي مثل انتقام المجتمع منه وتمرده عليه وتذكر مصادر أن جامعة اوكسفورد رفضت قبول ابنه فيفيان لكونه إبن اوسكار وايلد، رجل الفضائح، حسب ما قيل عنه.

وفي يوم الثلاثين من شهر نوفمبر عام ١٩٠٠ مات واحد من أهم كتاب عصره وحيدا مهجورا ومعدما في أحد فنادق باريس

الرخيصة على سرير بائس، ولم يسر في جنازته غير أفراد معدودين بينهم عدد من الشعراء والأدباء الانجليز، لكن أهمهم كان جيد وبروست، في البداية أحرق جثمانه في مقبرة بانيو ثم نقل رماده في عام ١٩٠٩ إلى مقبرة بير لا شيز في باريس.

المترجم:

ولد مترجم روائع أوسكار وايلد "عبده إسماعيل الطهطاوي" بمدينة " جرجا " بمحافظة سوهاج بجنوب صعيد مصر، في الرابع عشر من شهر سبتمبر عام ١٩٢١م – ١٣٤٠هـ، وقد نشأ في أسرة عريقة يمتد نسبها إلى "رفاعة رافع الطهطاوي"، وتلقى تعليمه في كتاب القرية حيث حفظ القرآن، ثم عمل في مدرسة جرجا حتى حصل على البكالوريا (الآن الثانوية العامة) ثم ارتحل إلى القاهرة، ليلتحق بجامعتها، حيث حصل على ليسانس الآداب (قسم اللغة العربية وآدابها) عام ١٩٤٦م، ثم حصل على الماجستير في اللغة العربية وكان ذلك عام ١٩٥٢م، و في عام ١٩٦٣م حصل على الدكتوراه وكان موضوعها " اللغة العربية في مصر منذ الفتح العربي حتى أواخر القرن السادس الهجري " وبعد التخرج عمل مدرسا للغة العربية، وقضى حياته داخل مصر، بمحافظة الجيزة، قريبا من منطقة الأهرامات، وكتابه « من روائع أوسكار وايلد»، الصادر في القاهرة ١٩٤٩م، هو أول كتاب ترجمه وأول كتاب أصدره عموما،

فديوانه الأول « شقائق النعمان» صدر عام١٩٥١م، والثاني « أغاني الهوى»، صدر عام ١٩٥٦م، ويبدو أن انشغاله برسالتيه للماجستير والدكتوراة، فضلا عن عمله بالتدريس، وكذلك التجاهل النقدي الذي واجهه كشاعر، كل هذه الأسباب دفعته إلى هجران الشعر، فلم يصدر بعد عام ١٩٥٦ إلا عدد من الترجمات، من أشهرها كتابه "قصص من الشرق والغرب"، وكذلك طبع في كتابين رسالتيه للماجستير والدكتوراة، وظل وفيا لمهنة التدريس التي أحبها حتى وافته المنية إثر أزمة قلبية مفاجئة وذلك في عام ١٩٧٠ م، وعن عمر يناهز ٤٩ عاماً.

روائع وايلد

والكتاب الذي نقدمه اليوم مختارات انتقاها المترجم من بين ثلاثة كتب لأوسكار وايلد، فقصتاه: أبو الهول الذي لا سر له، وصاحب الملايين، الأنموذج انتقاهما من المجموعة القصصية " جريمة لورد آرثر سافيل وقصص أخرى".

وقصتاه "الملك الشاب" و"طفل الكوكبة" من بين قصص المجموعة القصصية "بيت الرمان".. أما قصصه الثلاث الأخرى " البلبل والوردة" و"الأمير السعيد " و"العملاق الأناني " فقد اختارها من كتاب "الأمير السعيد وخرافات أخرى"، وهي من أهم وأجمل مجموعات أوسكار وايلد،بالرغم من أنه استهدف بها أصلا القراء

الصغار، غير أن هذا لم يمنع الكبار من قراءتها والاعجاب بها باعتبارها أعمالاً أدبية أصيلة.

ومن المعروف أن قصص هذه المجموعة لم يؤلفها وايلد كنصوص مكتوبة، بل كان يقصها شفاهية على أخيه، وهما في باريس، إذ كان ذلك الأخ يسأله أن يزوده بموضوعات تصلح مقالات لصحيفة كان يراسلها. إذاً، فكان وايلد يحكي ما يعن له وكان أخوه يدون ما يسمع.

في البداية حول الأخ الحكايات إلى مقالات صحفية، لكن بعدما عاد أوسكار وايلد إلى لندن استعاد حكاياته وأعاد صياغتها بلغته الخاصة وأصدرها مجموعة معا، في كتاب واحد للمرة الأولى عام ١٨٨٨ وقد طبعت مرات كثرة بعد ذلك ولا تزال تطبع إلى اليوم، كما ترجمت، مفرقة أو مجموعة إلى لغات عدة، بل اعتبرها بعض مؤرخي حياة وايلد ودارسي أعماله، من أفضل أعماله على الاطلاق، لذلك فضل المترجم أن يبدأ بها كتاب الروائع، وقد افتتحه بقصة « البلبل والوردة»، وهي الوحيدة في المجموعة التي تضاهي شهرتها – إلى حد ما – شهرة «الأمير السعيد»، نرى البلبل وهو يستمع إلى شكوى طالب ترفض ابنة أستاذه أن ترقص معه، لأنه لا يستطيع أن يأتي لها بوردة حمراء. فيتوجه البلبل إلى الحديقة متجولا بين شجرات الورد، حتى تخبره واحدة من هذه

الشجرات أنها قادرة بالفعل على أن تنتج وردة حمراء، بشرط أن يدفع البلبل حياته ثمنا لها..   يتردد البلبل أول الأمر، لكنه إذ يعود ويرى الدموع التي تسح من عيني الطالب، يقرر أن يقوم بتلك التضحية. فيندفع نحو شجرة الورد غارزاً شوكها في قلبه، كي ينزل الدم الأحمر منه ويلوّن الوردة.

فلما يجد الطالب وردته الحمراء يحملها إلى معشوقته وابنة أستاذه فترفضها إذ خلال ذلك الوقت كان شخص آخر قد أهداها جوهرة..وهكذا يفشل الطالب في مسعاه، فيغادر المكان رامياً الوردة، عائداً إلى دروسه، لكن بعد أن فقد البلبل حياته.

أما قصة «الأمير السعيد» فتحكي عن أمير عاش معزولاً عن الناس، فلم يشعر ببؤس حالهم ومعاناتهم. فلما مات أقيم له تمثال وسط المدينة، فأطل من مكان التمثال المرتفع على الناس و على الأحياء الفقيرة التي يعيشون فيها، عندئذ فقط عرف حقيقة أحوالهم، ولما كان غير قادر على الفعل، لأنه تمثال، استعان بسنونوة تحط عليه بين الحين والآخر، لتنقل إلى هؤلاء البائسين تباعاً، قطعاً من الذهب تزين ثيابه. وكانت السنونوة تنفذ ما يطلبه منها الأمير وتوصل تلك الثروات الصغيرة إلى الناس فيسدّون بثمنها بعض جوعهم. ولما نفدت الثروة، وأدركت السنونوة أنها

ستموت من البرد، فقد اعتادت اللجوء إلى التمثال حين يشتد الصقيع، لتجد في ثيابه الثمينة ملجأ لها. فلما اشتد بها الصقيع حاول الأمير أن يبعث فيها الدفء بأن تقبله على شفتيه. لكنها مع ذلك تموت فيحزن الأمير السعيد....

وثالثة تلك الروائع هي قصة «العملاق الأناني» وهو صاحب حديقة جميلة يحب أن يلعب فيها الأطفال. ولكنه يرجع ذات يوم من زيارة قام بها إلى دار الغولة، ولم يكن مزاجه جيدا، فطرد الصغار من حديقته، ثم بني من حولها سوراً ليمنعهم من دخولها في المستقبل. فيحل على الحديقة فصل شتاء دائم، و ذات صباح يصحو العملاق من نومه ليجد أن الربيع قد عاد إلى الحديقة، يتعجب ويبحث عن السبب فيعرف أن الأطفال أحدثوا ثغرة في السور ونفذوا منها إلى الحديقة، عندئذ يدرك العملاق خطأه فيقرر هدم السور. لكن الأطفال حينما يرونه يشعرون بالرعب، ويهربون، إلا واحد منهم كان يبكي فلم يلاحظ وصول العملاق، فيقوم بتهدئته ويساعده على تسلق شجرة كان يريد تسلقها، ويبلغه رسالة إلى الأطفال خلاصتها «إن هذه الحديقة حديقتكم». ويقرر أن يهدم السور ليتيح للأطفال دخول الحديقة من جديد ويعود معهم الربيع.

ويستمر هذا النهج في القصص أو الروائع السبع المختارة،

وفيها يسعى أوسكار وايلد إلى المزاوجة بين الأدب الغرائبي والدافع الأخلاقي، ونقد المجتمع وذلك في لغة بسيطة هادئة.

د.حامد عبد الهادي

البلبل والوردة

صاح الطالب الفتي: " لقد وعدتني إذا أحضرت لها ورد أحمر أن ترقص معي: ولكنه لا يوجد في كل أرجاء بستاني وردة حمراء..."

فسمعه البلبل، وهو في عشه على شجرة اللبخ، وأطل من بين الأوراق متعجباً وقد صاح الفتى، وعيناه الجميلتان مغرورقتان بالدموع: "لا يوجد في كل أرجاء بستاني وردة حمراء.. آه.. لكم تتوقف السعادة على أتفه الأشياء لقد قرأت كل ما كتبه الحكماء، واستوعبت أسرار الفلسفة.. ومع ذلك حياتي تشتي من أجل وردة حمراء.."

همس البلبل: " ها هنا أخيرة محب صادق ! ومع أني لا أعرفه، إلا أني غردت له ليلة إثر ليلة، وأنشدت النجوم قصته مساء إثر مساء. والآن هاأنذا أراه: شعره أسود كزهرة السنبل، وشفاهه حمر، كأنها الوردة التي يشتهيها، ولكن الهوى قد أحال وجهه شاحبا كالعاج. والحزن قد رسم على جبينه تجاعيده»

وتمتم الطالب الفتي: « غداً سيدعو الأمير حفلا، وستكون محبوبتي من بين المدعوين فإذا أهديتها وردة حمراء، فسترقص معي حتى الفجر، وإذا أهديها وردة حمراء، فقد أضمها بين ذراعي، بينما

تسند رأسها إلى كتفي، وتمسك يدها يدي. ولكن ليس هنالك في بستاني وردة حمراء، ولذلك سأجلس وحيدا، وستمر بي، دون أن تكترث.. وستحطم قلبي.. "

همس البلبل: « هاهنا الحب الصادق حقاً. إنه يتألم مما أغني من أجله وكل ما يبعث السرور في قلبي، يغمره بالشجن. إن الحب لشيء مجيب، أمن من الزبرجد، وأغلى من الياقوت: ولا يمكن أن يشتري باللؤلؤ، والذهب، ولن يعرض في الأسواق، ولا يحتمل أن يبتاعه التجار، ومحال أن يوزن بالذهب.»

قال الطالب الفتي: ".. وسيجلس الموسيقيون في شرفهم، وسيعزفون على آلاتهم الموسيقية. وسترقص محبوبي على نغمات القيثارة والعود، في رشاقة وخفة، بحيث لا تمس قدماها الأرض. وسيتزاحم حولها رجال الحاشية، في ملابسهم الزاهية، ولكنها ان ترقص معى، لأني لا أجد وردة حمراء أقدمها إليها. وارتمى على الحشائش، ووضع وجهه بين راحتيه وأخذ يبكي... فتساءلت عظاية صغيرة بينما كانت تمر به مسرعة بذنبها المشرئب إلى السماء: « لماذا يبكي ؟»

وهتفت فراشة كانت ترفرف بجناحيها بعد أن ألهبتها أشعة الشمس: « حقاً لماذا.. ؟!»

وهمست أقحوانة إلى جارتها بصوت رقيق: " حقا.. لماذا.. ؟!

" أجاب البلبل: " إنه يبكي من أجل وردة حمراء..!"

فصاح الجميع: " من أجل وردة حمراء ؟ إن هذا المضحك..! " وقهقهت العظاية الصغيرة، التي كانت تبدو فظة غليظة القلب.

ولكن البلبل كان قد فهم سر حزن الطالب. وجلس هادئاً على شجرة البلوط، وأخذ يفكر في سر الحب. وفجأة نشر جناحيه الرماديين لكي يطير، وانساب في الجو، وقطع الغابة كأنه ظل، وعبر البستان. وكان هنالك وسط الأعشاب شجرة ورد واقفة، طار إليها البلبل لما رآها، وحط على غصن من أغصانها، وصاح " أعطيني وردة حمراء، وسأغني لك أعذب أغاني."

ولكن الشجرة هزت رأسها، وأجابت: " إن وردي أبيض، أبيض كزبد البحر، وإنه لأنصع من الجليد الذي يغطي قمة الجبل. ولكن اذهب إلى أختي التي تنمو حول المزولة العجوز، فلربما تعطيك ما تريد".

وهكذا انطلق البلبل إلى شجرة الورد التي تنمو حول المزولة العجوز وصاح: « أعطيني وردة حمراء، وسأغنى لك أعذب أغاني»

ولكن الشجرة هزت رأسها، وأجابت: « إن وردى أصفر، أصفر كأنه شعر عرائس الماء، التي تجلس على عرش مضطرب، وإنه لأشد صفرة من زهرة العباد، التي تتفتح في المرج قبل أن يقر بها الحاصد بمنجله. ولكن اذهب إلى أختي التي تنمو بجوار نافذة

الطالب، فلربما تعطيك ما تريد.»

وهكذا انطلق البلبل إلى شجرة الورد، التي تنمو بجوار نافذة الطالب، وصاح: « أعطيني وردة حمراء، وسأغني لك أعذب أغاني».

ولكن الشجرة هزت رأسها، وأجابت: « إن وردي أحمر، أحمر كقدمى ورقاء. وإنه لأشد حمرة من مراوح المرجان الكبيرة، التي تتماوج في الكهف البحري، ولكن الشتاء جفف عروقى، وقتل الصقيع براعمى، وحطمت العاصفة أغصاني، ولن يكون لي ورد طيلة هذا العام.»

هتف البلبل: « إن كل ما أطلبه هو وردة حمراء، وردة حمراء واحدة لا غير.. ألا من سبيل للحصول عليها ؟»

أجابت الشجرة: « هنالك سبيل للحصول عليها، ولكنه مروع فظيع، لدرجة أني لا أجرؤ على ذكره لك..»

قال البلبل: « لى فاذكر به، فأنا لست بهياب»

قالت الشجرة: « إذا كنت تريد وردة حمراء فعليك أن تخلقها من نغمات الموسيقي في ضوء القمر، وتصبغها بدماء قلبك، وتضغط بصدرك فوق شوكة من أشواكي، وأنت تشجيني بأغانيك. وعليك أن تغني لي طيلة الليل، بينما تخرق الشوكة قلبك، لينساب

دم حياتك في عروقي»

هتف البلبل: « إن الموت لمن باهظ من أجل وردة حمراء ! فالحياة غالية جدا عند الجميع. إنه لجميل أن أجلس في غابة. ورقة الأشجار، أرقب الشمس في مركبتها الذهبية، والقمر في مركبته اللؤلئية. ولذيذ أن أشم عبير الزعازيع، وروح الخزامي التي تختبئ في الوادي، والخلنج الذي يتفتح على سفح الجبل.. ولكن إذا كان الحب أفضل من الحياة، فكم يساوى قلب طائر إذا قيس بقلب إنسان ؟»

ونشر جناحيه الرماديين لكي يطير، وانطلق في الجو، وانساب فوق البستان كأنه ظل، وعبر الغابة. ولا يزال الطالب الفتي مستلقيا على الحشائش التي تركه عليها، لم تجف دموعه من مآقيه الجميلة بعد..

وصاح البلبل: «كن سعيدا أيها الطالب، فتعطي وردتك الحمراء ! فإني سأخلقها من نغمات الموسيقي في ضوء القمر، وسأصبغها بدماء قلبي. وكل ما أطلبه منك مقابل ذلك: هو أن تكون محبا صادقا، لأن الحب أعمق من الفلسفة، وأشد أيداً من القوة، و أجنحته لهب ملون، وجسمه كأنه الشهب في ألوانه، وشفاهه حلوة كالشهد وأنفاسه كأنها بخور يتصاعد..»

ونظر الطالب من فوق الأعشاب. وجعل يصغي، ولكنه لم

يستطع أن يفهم ما كان يحدثه به البلبل، لأنه لم يع إلا الأشياء المنبثة في الكتب.

ولكن شجرة اللبخ فهمت الحديث، وتملكها الحزن، لأنها كانت مولعة بالبلبل الصغير الذي بني عشه بين أغصانها، وهمست: « غن أغنية الوداع الأخيرة، فأني سأشعر بالوحدة حينما تذهب».

وغرد البلبل لشجرة اللبخ، وترددت أغار يده في الجو كمياه تنسكب من إبريق فضي. وعندما انتهى من أغنيته نهض الطالب، وانتزع مفكرة وقلماً من جيبه، وقال لنفسه وهو يبتعد رويداً رويداً في أرجاء الغابة: « إن له لأسلوبا لا نستطيع أن ننكره، ولكن هل به عاطفة.. إلى لأخشى ألا يكون.. في الحقيقة أنه يماثل أغلب الفنانين. هو غير صادق، ومحال أن يضحى بنفسه في سبيل سعادة الآخرين. هو يفكر في الغناء فقط، وكل إنسان يعلم أنانية الفنون.. ومع ذلك لا زلنا نسلم بأن له بعض النغمات الشجية في صوته، ولكنها – مع الأسف – لا تدل على معنى، ولا تفيد نفعا في الحياة.. تم اقتحم حجرته، واستلقي على فراشه المتواضع وأخذ يفكر في حبيبته، و بعد قليل استسلم للنوم.

ولما تبدي القمر في كبد السماء، طار البلبل إلى شجرة الورد، ووضع صدره على شوكتها، وأخذ يغني طوال الليل، وصدره على الشوكة. وركع القمر البلورى، وأخذ ينصت. وطوال الليل غنى

البلبل بينما كانت الشوكة تتغلغل في صدره، ودم حياته ينزف منه...وكان أول لحن غناه البلبل: مولد الحب في قلب الفتي، والفتاة فنبتت وردة عجيبة على قمة شجرة الورد، ورقة وريقة كلحن يعقبه لحن. وكانت بادئ ذي بدء شادية الضباب الذي يتكاثف فوق مياه النهر، باهتة كأشعة الصبح الأولى، فضية كأجنحة الفحر. وكانت خيال و ردة في مرآة، أو كخيال وردة في صفحة غدير.

ولكن الشجرة هتفت بالبلبل لكي يضغط بقوة على الشوكة، وصاحت به: د اضغط بشدة أيها البلبل الصغير، و إلا أضاء النهار قبل أن يتم خلق الوردة.»

وهكذا أخذ البلبل يضغط بقوة فوق الشوكة، وأخذت نبراته ترتفع رويداً رويداً، لأنه كان يردد لحناً عن مولد الحب في قلب الرجل والمرأة.

وظهر على الوردة لون وردي لطيف كأنه الخجل الذي يظهر على وجه الرجل حين يقبل عروسه ليلة الزفاف. ولكن الشوكة لم تبلغ قلب البلبل بعد، فبقي قلب الوردة باهتة، لأنه لا يحمل قلب الوردة قرمزيا غير دماء قلب بلبل.

وهتفت الشجرة بالبلبل لكي يضغط بقوة على الشوكة، وصاحت به: « اضغط بشدة أيها البلبل الصغير، و إلا أضاء النهار قبل أن يتم خلق الوردة..»

وهكذا ضغط البلبل بقوة فوق الشوكة، فراشت الشوكة قلبه، وسرت في جسده موجة من الألم الشديد. وأخذ الألم يشتد شيئا فشيئا.. وارتفعت نغمات البلبل رويداً رويداً، لأنه كان يتغنى بالحب الذي يكمل بالموت.. الحب الذي لا يفني في القبر.

وصارت الوردة العجيبة قرمزية، كوردة تتفتح تحت سماء الشرق. وكان لون وريقاتها قرمز يا أيضا، وقرمز يا كالياقوت كان قلبها.

ولكن صوت البلبل أخذ يخفت ويخفت، وأجنحته الصغيرة ابتدأت تضطرب، وأصبح على ناظر به غشاوة. وأخذ اللحن يضمحل ويضمحل، وأحس البلبل بحشرجة في حلقه... ثم انفجر باللحن الموسيقي الأخير. حينما سمعه القمر تلكأ في السماء، ونسي أن الفجر قد أقبل. ولما بلغ الوردة انتفضت في ذهول، وفتحت أوراقها لتستقبل نسمات الصباح الباردة.. وحمله الصدى إلى كهفه الأرجواني في الجبل فأيقظ الرعاة النائمين من أحلامهم... وانساب خلال أحراش النهر، تحملت رسالته إلى البحر..

وهتفت الشجرة: «انظر.. انظر.. لقد كملت الوردة الآن..»: ولكن البلبل لم يجب، لأنه كان يرقد ميتاً فوق الحشائش الطويلة، والشوكة في قلبه..!

وفتح الطالب نافذته عند الظهيرة، وأطل منها، وصاح: « يا

للحظ الجميل الرائع.. هاهنا وردة حمراء، لم أر مثلها طوال حياتي.. ولجمالها أعتقد أن لها اسماً لاتينياً كبيراً..» وانحنى من النافذة، واقتطفها...ثم لبس قبعته، وأسرع إلى بيت أستاذه، والوردة في يده. وكانت ابنة الأستاذ تغزل حريرا أزرق. وكان كلبها الصغير نائماً إلى قدميها ؛ فقال لها الطالب: «لقد وعدتيني أن ترقصي معي إذا أحضرت لك وردة حمراء، فها هي ذي أشد الورد احمرار في الدنيا. ستضعينها في المساء عند قلبك، وستقول لك ونحن نرقص: أني أحبك كثيراً..»

ولكن الفتاة قطبت جبينها، وأجابت: « إني لأخشى ألا تناسب ثوبي. وفضلا عن ذلك، قد أرسل إلى ابن أخي قائد الحرس الملكي بعض الجواهر المعينة، وكل إنسان يعلم أن الجواهر أغلى بكثير من الأزهار..»

قال الطالب مغضبا: « أجل.. والله إنك لجاحدة.. وألقى بالوردة في الطريق، حيث وقعت في الوحل، وداستها عجلات عربة.

قالت الفتاة: « جاحدة.. ماذا أقول لك.. إنك أحمق.. ثم بعد ذلك من أنت.. جلست إلا طالبة جامعيا.. وكيف أصدق أنه يكون لك مشبكان من الفضة لحذائك كما لابن أخي قائد الحرس..؟!) وتركت مقعدها، وانفلتت إلى المنزل.

تمتم الطالب وهو يبتعد: « أي شيء سخيف هذا الحب..!!

إنه ليس له نصف فائدة المنطق، وهو لا يثبت شيئاً، ودائماً يغرينا بأشياء لا تحدث، ويقنعنا بأمور لا نصيب لها من الصحة.. في الحقيقة أنه غير عملي.. ولأن يكون الإنسان عمليا هو كل شيء في هذه السن، فسأرجع إلى الفلسفة، وأدرس ما وراء الطبيعة.»

وهكذا رجع إلى حجرته، وانتزع مجلداً كبيراً، تراكمت الأتربة فوقه، وأخذ يقرأ..

الأمير السعيد

على قاعدة عالية تطل على المدينة، أقيم تمثال الأمير السعيد، حيث موه بصفائح ذهبية رفيعة، وكانت له عينان ياقوتيتان زرقاوان لامعتان وعلى مقبض سيفه تلألأت ياقوتة حمراء كبيرة. حقاً لقد كان باهرا.. قال أحد أعضاء المجلس البلدي، وقد كان يأمل في سمعة، وذوق فني "إنه لجميل كأنه دوارة الريح»، وأردف، وقد خشي أن يظن الناس أنه رجل غير عملي، والحقيقة أنه كان غير ذلك: « ولكنه ليس بذي فائدة».

وقالت أم عاقلة لطفلها الذي كان يبكي خوفا من صورة القمر: «لم لا تكون الأمير السعيد: فالأمير السعيد لا يحل مطلقا بالبكاء لأي سبب من الأسباب»

وتمتم رجل بينما كان يتأمل المثال العجب: « إلى المسرور، إذ أنه يوجد في الدنيا رجل سعيد»

وقال الصبية الصغار وقد رأوا التمثال، وهم خارجون من الكاتدرائية في أرديهم القرمزية، وستائره البيض الناصعة: «.. إنه ليبدو كالملك تماما...»

فسألهم مدرس الرياضة: « كيف عرفتم ذلك أيها الصبية،

وأنتم لم تروا قط ملكا واحدة»

قال الصغار: « لقد رأينا ذلك في أحلامنا..» فعبس وجهه، وظهرت عليه علامات الصرامة، لأنه لم يعتقد في أحلام الأطفال.

وذات ليلة حلق في سماء المدينة طائر صغير من طيور السنونو، ذهب رفاقه إلى مصر منذ ستة أسابيع، وتأخر هو عن اللحاق بهم، لأنه كان يعشق أجمل قصبة رآها.. قابلها في صباح باكر من أيام الربيع بينما كان يطير منحدرة في اتجاه النهر وراء فراشة صفراء كبيرة. لقد أخذ بلبه خصرها الدقيق، فتوقف قليلا كي يناجيها...

تمتم الطائر، وقد كان يود أن يحط على مؤخرتها فجأة، فأحنت القصبة رأسها قليلا، فجعل يحوم حولها، لامسا الماء بأجنحته، خالق بذلك موجات فضية صغيرة: "هل لي أن أحبك ؟، وكان ذلك كل. غزله، واستمر الصيف جميعه ".

فتهامس رفاقه: « إن هذا لود مضحك ! فهي فقيرة معدمة، ولها أقرباء كثيرون.» ولقد كان النهر حقا غاصا بالقصب، وما أقبل الخريف حتى ذهبت الطيور جميعا وخلفته.

وأحس الطائر بالوحدة، وابتدأ يفقد الأمل في حب فاتنته، وهمس:

« إنها لا تناجيني، وهى تديم مغازلة الريح، و إني لأخشى أن

تكون ذات دلّ عليَّ»

ولقد كانت القصبة حقا كلما هبت الريح تعمل أرق انحناءاتها.

وقال الطائر: « إنى أسلم بأنها تعشق المنزل، ولكني محب للسفر، ومن ثم يجب أن تكون زوجي محبة للسفر أيضا.»

همس الطائر: « هل لك أن تذهبي معي. ؟» ولكنها هزت رأسها، لأنها كانت مربوطة إلى منزلها.

فصاح الطائر: « لقد كنت إدا تعبثين بي.. فوداعا... سأحلق فوق الأهرام.»

وأخذ يطير طوال النهار، حتى وصل المدينة في الليل، فقال لنفسه: « ترى على أي شيء أحط.. إنى لأتمنى أن تكون المدينة قد أعدت لذلك عدتها..»

وحينئذ لمح المال على قاعدته الشاهقة، فصاح: « سأحط هنالك عاليا، فالتمثال مقام جميل، في مهب نسيم عليل». وهكذا أخذ مكانه بين قدم الأمير السعيد.

قال الطائر لنفسه، وهو يتلفت من حوله، لكي يتهيأ للنوم: « لقد أصبح لدي مهاد من الذهب..» وما وضع رأسه تحت جناحه حتى سقطت قطرة ماء، فصاح: « أي شيء غريب هذا..! إنه ليس هنالك سحابة واحدة تكدر الأفق، والنجوم لامعة متلألئة.. ثم تمطر

السماء بعد ذلك إن الجو في شمال أور بالزمهرير قارس، والقصبة ما فتئت تعشق الأمطار، ولكن هذا من أنانيتها..»

وحينئذ سقطت قطرة أخرى، فصاح الطائر: « ما فائدة تمثال لا يدرأ الأمطار ج! يجب على أن أبحث عن مدخنة تحميني...» وتأهب للطيران

ولكنه قبل أن ينشر جناحيه سقطت قطرة ثالثة. فنظر الطائر إلى أعلى، ورأى عيني الأمير السعيد مغرورقتين بالدموع ؛ ورأى الدموع تنهمر على خديه الذهبيين وكان محياه في ضوء المر جميلا رائعا، جعل قلب الطائر يشفق عليه.

قال الطائر: « من أنت ؟»

قال التمثال « أنا الأمير السعيد.»

قال الطائر: « لماذا تبكي إذا..! لقد بللتني مآقيك..»

قال الأمير: « حينما كنت أحيا بقلب إنسان، لم أكن أعرف ما هي الدموع. فقد كنت أسكن قصر «سان سوسي» حيث لم يسمح للحزن أن يطرق بابه. وكنت أعبث مع خلاني في الحديقة أثناء النهار، وفي المساء أرأس حفل الرقص في البهو الكبير. وكان يحيط بالقصر جدار عال ولكني لم أهتم بالسؤال عن كان يسكن إلى جواره. نعم.. لقد كان كل شيء حولي جميلا، فأطلق على أفراد

الحاشية لقب « الأمير السعيد». ولقد كنت سعيدة حقا إذا كان العبث هو السعادة. وهكذا كنت أحيا وعلى هذا لفظت أنفاسي، ولما ضمني الموت رفعوني هنا عاليا في هذا المكان، لكي أرى كل القبائح، وألوان البؤس والشقاء مما تكتظ به مدينتي. ومع أن قلبي ق من رصاص، إلا أني لم أفضل غير النحيب..!»

همس الطائر: « أي شيء عجيب هذا..؟ ! أليس التمثال من معدن الذهب الجامد ! ؟» وكان المثال هادئا رزينا بحيث استطاع أن جهر بانتقاداته.

قال التمثال في نبرات موسيقية خافتة: « هنالك.. هنالك بعيدا في شارع صغير يقوم منزل خيم عليه الفقر، أكاد أرى من خلال نافذة من نوافذه المفتوحة امرأة جالسة إلى مائدتها: وجهها نحيل شاحب، وراحتاها حمراوان خشنتان، أثخنتهما الإبرة خسا. وهي تقوم بتطريز الأزهار على ثوب من الحرير الأطلس، لأعز وصيفات شرف الملكة، لكي ترتديه في السهرة المقبلة. وعلى مهد في ركن من أركان حجرتها استلقي طفلها الصغير مريضا. لقد أصيب بالحمى، وهو يشتهي البرتقال، والأم وليس لديها إلا الماء يبكى طفلها المريض، و يصيح لأنها تعطيه أكوابه. فيأيها الطائر، هل لك أن تذهب نيابة عني بهذه الياقوتة التي تزين مقبض سيفي، وتعطيها لها فقدماي مثبتتان إلى هذه القاعدة، وأنا لذلك لا أستطيع

حراكا.؟!»

قال الطائر: « إنهم ينتظرون مجيي هنالك على ضفاف النيل، وأصدقائي يحلقون فوق مياه النهر، يناجون زهرات اللوتس الكبيرة،، وعما قليل سيأوون إلى قبر ملك عظيم، لا زال موجودا في تابوته المزخرف حيث لف في ثوب من الكتان الأصفر، وحنط بالطيب، وزينت رقبته بقلادة من الزمرد الأخضر، ولكن يديه نحيلتان كأنهما وريقات ذابلة...»

قال الأمير: « أيها الطائر ألا تبقي معي ليلة واحدة، تكون فيها رسولي: فالصبي ظمئ، والأم لذاك حزينة..!»

قال الطائر: « أنا أمقت الصبية من كل قلبي أيها الأمير. ففي الصيف الماضي بينما كنت على ضفة النهر، أخذ طفلا عاهل الطاحونة يرمياني بالحمى وطبيعي لم يصيباني، فنحن طيور السنونو نعرف كيف نتفادى هذا بطيراننا وبجانب ذلك قد انحدرت أنا من عائلة معروفة بخفتها، ولكنها ما زالت هدفا للجفاء..!»

واربد وجه الأمير أسى ولوعة، ففاض قلب الطائر لذلك حسرات وهمس إليه « إن الجو قارس هنا أيها الأمير، ولكني سأبقى معك الليلة لأكون رسولك.»

قال الأمير: « شكرا لك أيها الطائر الصغير.»

ونزع الطائر بمنقاره الياقوتة الكبيرة من مقبض سيف الأمير، وحلق بها فوق المدينة. فمر في طريقه ببرج الكاتدرائية، حيث أقيمت تماثيل الملائكة الرخامية. وعبر بالقصر حيث سمع أصداء موسيقى الرقص، ولمح فتاة جميلة وعشيقها في الشرفة يتناجيان.

همس العاشق: « ما أروع النجوم.... وما أروع قوة الحب يا حبيبتي..»

قالت الفتاة: « حبيبي.. إني لأتمنى أن يكون ثوب السهرة ناجزا ليلة الرقص المقبلة. ولقد أمرت بتطريزه بالأزهار ولكني كم أخشى، فعاملات الأزياء دائما كسولات...»

وواصل الطائر سيره تجاه النهر، فرأى المنارات تفي، ساريات السفن، وأغذ" سيره حي الحي اليهودي، حيث لمح شيوخ بني إسرائيل يديه ون و يشترون، ويزنون الأموال في موازين من النحاس، وأخيرا وصل إلى المنزل المتواضع، ونظر، فرأى الصبي يوالى السعال، والأم قد أسلمت جفنيها للنعاس، فوضع الياقوتة الكبيرة على المنضدة، وحام في رفق حول مخدع المريض مشروح بجناحيه.

قال الصبي: « إني أشعر بهبوط في درجة الحرارة. لا جرم أني مماثل للشفاء. وأسلم عينيه لرقاد عميق.»

وحينئذ رجع الطائر إلى الأمير السعيد، وحدثه بما فعل.

قال الطائر: « إن هذا العجيب أيها الأمير. فمع أن الجو قارس إلا أني أحس بالدفء.»

قال الأمير: « إن هذا أيها الطائر لأنك فعلت خيرا.»

ووقع الطائر إثر ذلك في موجة من التفكير العميق، أسامته إلى النوم. ولما أضاء النهار طار إلى النهر، واغتسل. فقال أستاذ علم الحيوان، وقد لمحه يستحم وهو في طريقه عابر القنطرة: « أي ظاهرة عجيبة تستحق النظر... طائر في الشتاء يستحم.. ؟!» وكتب حول ذلك مقالة طويلة أرسلها إلى الصحيفة المحلية هنالك، احتفظ بها كل من قرأها... ولقد كانت حقا مليئة بكليات لم يستطيعوا أن يتفهموها.

قال الطائر: « فلأذهب إذا جن الليل إلى ضفاف النيل.» وأخذ يحلق ويطير في سماء المدينة، فزار المباني التذكارية، ووقف طويلا على برج الكنيسة. وكانت العصافير تهامس أينما يذهب، وتقول: « أي غريب عظيم هذا..؟!» وهكذا استمتع الطائر بما شاهد، وأخذ قسط وافر من اللذة

ولما ظهر القمر في كبد السماء، رجع إلى الأمير السعيد، وقال له: « أنا متأهب للذهاب إلى مصر الآن، فهل لديك تفويض لي بذلك..»

قال الأمير: «ألا تبقي معي ليلا آخر أيها الطائر..؟»

قال الطائر: « إن رفاق أيها الأمير ينتظرون مجيئي هنالك على ضفاف النيل، وسيطيرون في الغد إلى منحدرات المياه الثانية، حيث تكمن فرس الماء بين أوراق البردي، وحيث يتربع الإله ممنون على عرش من الجرانيت، يرصد النجوم آناء الليل إلى أن يشرق الصبح، وحينئذ يرسل صيحة الفرح، و يغفو ساكنا. وحيث تقبل في الظهيرة السباع الضارية الصفر إلى ضفة النهر، لتطفئ ظمأها، بعيونها الخضر، وزيرها الجمهوري، الذي يفوق في علوّ نبراتة صوت المياه المتدفقة، من مساقط النهر.»

قال الأمير: « إني لألمح أيها الطائر من بعد شابا في مقتبل العمر، يسكن كوخ صغيرا. قد استلقي على منضدة تناثرت الأوراق عليها ؛ وفي كوب بجانبه ترك طاقة بنفسج ذاوية.. شعره كستنائي مجعد، وشفتاه حمراوان، وعيناه حالمتان واسعتان. إنه يحاول أن يختم مسرحية سيقدمها إلى المسرح، ولكن الزمهرير القاسي الشديد لم يمهله لكي يكتب أكثر من ذلك، والجوع قد هد قواه.»

قال الطائر: «سأبقى معك ليلا آخر أيها الأمير، فهل لي أن أنزع له ياقوتة أخرى..؟»

قال الأمير: «وا أسفاه..! ليس لدى ياقوت الآن أيها الطائر.. و إن عيني هي كل ما تبقي لدى، وهما مصنوعتان من زمرة أزرق، جلب خصيصا من الهند منذ مئات السين، فانتزع إحداها، واذهب

بها إليه. إنه سيبيعها، وسيشترى طعاما ووقودا ليتم مسرحيته.».

قال الطائر: « أيها الأمير العزيز أنا لا أستطيع هذا». وأخذ يبكي..!

قال الأمير: « افعل ما تؤمر به أيها الطائر..»

فنزع الطائر عين الأمير من محجرها، وطار بها إلى كوخ ذلك الشاب ؛ وكان من السهل عليه أن يعبر إلى داخله من ثقب في السقف، انساب منه إلى الحجرة. وكان الشاب آنئذ قد وضع وجهه بين راحتيه مما جمله لم يشعر بحفيف أجنحة الطائر، وهو ينزلق داخل الحجرة. ولما أفاق وجد الياقوتة الجميلة هنالك بجوار زهر البنفسج الذاوي، فصاح فرحة: « لقد ابتدأ الناس يقدرون أدبي. فهذه الزمردة قد أرسلها إلى أحد كبار المعجبين.. الآن أستطيع أن أختم القصة..»

وطار السنونو في الغد إلى الميناء، ووقف على سارية إحدى السفن الكبيرة، وأخذ ينظر إلى البحارة، وهم يسحبون بالحبال الصناديق الكبيرة من السمن، مرددين: « هيلا هوب.» فصاح الطائر: د اسمعوا.. أنا ذاهب إلى مصر.. ولكن أحدا لم يعره التفاتة..

ولما أضاء القمر رجع إلى الأمير السعيد، وقال له: « لقد رجعت إليك أيها الأمير لأقول لك: « وداعاً..»

قال الأمير: « أيها الطائر هلا بقيت معي ليلا آخر.. ؟»

قال الطائر: « إن الجو قارس أيها الأمير، وسيتساقط الثلج هنا بعد قليل. ولكن الجو هنالك على ضفاف النيل دافئ فوق رءوس النخيل، وحيث تستلقي التماسيح مسترخية في حمأة النهر، وإن رفاقي من الطير يبنون الآن أوكارهم في معبد يالبك، حيث تراقبهم أزاهير القرنفل، و بنات الهديل وهن ساجعات. أيها الأمير لا بد لي من أن أودعك ولكني لن أنساك. وفي الربيع المقبل سأرجع إليك بجوهرتين جميلتين عوضا عن تينك اللتين وهبتهما، وستكون الياقوتة أكثرا حمرارا من الورد، وستكون الزمردة أكثر زرقة من مياه البحر.»

وقال الأمير: « في الساحة الغريبة أيها الطائر تقف بائعة صبية، وقعت منها أعوادها في الوحل، وإن أباها سيعاقبها إن رجعت إليه خالية الوفاض، وهي تبكي لذلك، وتصيح. والصغيرة ليس لديها حذاء أو جورب. هي حافية القدمين، عارية الرأس أيضا. انزع عيني الأخرى أيها الطائر، واذهب بها إليها، فبعيني لن يعاقبها أبوها.»

قال الطائر: « سأبقى معك ليلا آخر أيها الأمير، ولكني لن أنزع منك عينك الأخرى، فبدونها لن تبصر شيئا..!»

قال الأمير: « ألا فافعل ما تؤمر به أيها الطائر.»

وهكذا نزع الطائر عين الأمير الثانية، وانساب بها حيث تقف الفتاة الصغيرة، وألقاها بين أصابعها، فصاحت الصغيرة: وما أجمل هذه الجوهرة. وأخذت تعدو إلى منزلها ضاحكة باسمة. ورجع الطائر إلى الأمير وقال له: « لقد أصبحت الآن أعمى، ولهذا سأبقى معك دائما.»

قال الأمير: « لا.. لا تبق معي أيها الطائر، وعليك أن تطير إلى ضفاف النيل.»

قال الطائر: « سأبقى معك ما بقيت.»

واستلقي نائما عند قدمي الأمبير. وطول غد وقف على كتف الأمير يقص عليه أخبار بلاد العجائب. فحدثه عن طيور الماء الحمر الطويلة، التي تقف في صفوف متراصة على ضفتي النيل، لتصيد الأسماك الذهبية بمنقارها. وحدثه عن أبي الهول، ذلك الذي بلغ من العمر شأوا عظما، تحكى قدم الأرض، وهو يسكن الصحراء، و يعرف الكثير عن قوافل التجار الذين يتهادون إلى جانب نوقهم، وهم يحملون كرات العقيق في أيديهم. وحدثه عن ملاك جبال القمر، الذي يحكي سواده لون الأبنوس. ذلك الرجل الذي يعبد بلورة لامعة، يقدم لها القرابين، وحدثه عن الحية الرقطاء، التي تأوي إلى نخلة باسقة حيث يطعمها أقراص العسل عشرون من الكهنة المسمين، وحدثه عن أقزام إفريقيا الزنوح، الذين يتخذون

أوراق الأشجار العريضة زوارق يعبرون بها البحيرة الواسعة وهم – مع ذلك – في حرب متواصلة مع الفراشات الصغيرة.

و قال الأمير: « لقد حدثتني أيها الطائر عن عجائب الدنيا، ولكن أعجب الأشياء جميعا هو ما يعانيه الرجل، وما تعانيه المرأة من الآلام. فليس من لغز أعظم من الشقاء على وجه هذه الأرض. حلق في سماء المدينة وحدثني بأخبار البائسين.»

وحلق الطائر في الأفق، ورأى الأغنياء يسهرون في قصورهم الليالي الحمر بينما ينتظر الفقراء الصدقة على أبوابهم.. ولمح في الشوارع والدروب وجوه الأطفال الشاحبة، أولئك الذين يتضورون جوعا وهم ينظرون نظرات ساهمة إلى ظلام الدروب. وشاهد صبيين استلقيا تحت الممر المقوس عند عبر القنطرة متعانقين، متحايلين بذلك على الدفء، ولقد أخذا يشكوان خواء البطون و يقولان: « آه... ما أشد جوعنا.، فسمعهما الحارس في شكواها به سان فصاح فيهما: « أيا كما والنوم هنا..» فهرب الطفلان تحت وابل من الأمطار الغزيرة... وحينئذ رجع الطائر إلى الأمير، وأخبره بما رأى...

قال الأمير: « لقد موّهوني بصفائح الذهب الرفيعة، فأنزع هذه الصفائح واحدة، واحدة، واذهب بها إلى المعوزين، فالأحياء مازالوا يعتقدون أن الذهب يستطيع أن يخلق منهم سعداء.»

فنزع الطائر صفائح الذهب الرفيعة الواحدة تلو الأخرى، حتى

أصبح التمثال الجميل قبيحاً داكنا. وذهب بها واحدة واحدة إلى الفقراء، فأضاءت وجوه الصبية، وابتسمت للحياة، وأخذوا يلعبون في الطريق، ويصيحون: « لقد أصبح اليوم لدينا طعام، وستشبع بطونا..» وتساقط الثلج، وانهمر الجليد، وتلألأت الشوارع ببريق الفضة، وتدلدل الجليد المخروطى من زخارف المنازل، كأنه خناجر بلورية لامعة فسار الناس في غراء الشتاء. ووضع الصبية على رءوسهم قبعات قرمزية اللون وأخذوا ينزلقون على الجليد.

وأحس الطائر الصغير بقسوة البرد. ولكنه لم يستطع أن يفارق تمثال الأمير، لأنه كان يحبه حباً جماً. والتقط بعض فتات الخبز، وأخذ يتحايل على الدفء بأن فرد جناحيه، وتركهما يخفقان.

ولكنه أحس أخيراً بدنو أجله. وكانت به بقية من حياة، طار بها إلى كتف الأمير، وتم: «وداعا أيها الأمير العزيز.. ولكن هل تسمح لى بتقبيل راحتك !؟»

قال الأمير: « إنه ليسرني أيها الطائر أن تذهب إلى مصر أخيرا. فلقد انتظرت بجاني طويلا: ولكن عليك بتقبيل شفتي لأني أو ترك، وأهواك».

همس الطائر: « إن سفرى ليس إلى مصر أيها الأمير. فأنا ذاهب إلى دار الفناء.. أو ليس الموت شقيق للمنام ؟» وقبل الأمير في شفتيه، وسقط هنالك عند قدميه..!!

وفي هذه اللحظة سمع صوت انشقاق هائل في داخل المثال، كأنما تحطم في جوفه شيء. والحقيقة أن القلب الرصاصي قد انفلق نصفين، ومن المؤكد أن يكون سبب ذلك هو سقوط قطعة من الجليد هائلة على التمثال.

وفي صباح الغد كان يسير حاكم المدينة في شوارع هذه الضاحية، يرافقه في سيره أعضاء المجلس البلدي. وما كادوا يمرون بالمثال حتى رفع الحاكم عينيه، وصاح: «واحسرتاه..! كم يبدو الأمير السعيد رثا قبيحا..!»

فصاح أعضاء المجلس البلدي أيضا: « حقا كم يبدو الأمير السعيد رثا قبيحا..!» واقتربوا من التمثال لكي يتأملوه.

قال الحاكم: لقد سقطت الياقوتة الحمراء التي كانت تزين مقبض سيفه وذهبت عيناه الجميلتان: ولكنه ما زال ذهبا. إنه ليبدو حقا أفضل بقليل من سائل فقير..»

قال الأعضاء: « حقا.. أفضل بقليل من سائل فقير..»

قال الحاكم: « وها هو ذا طائر عند قدميه قد أسلم الروح.. يجب علينا أيها الأعضاء أن نصدر أمرا، لا نسمح فيه للطير أن تموت هنا..» وسجل كاتب المجلس مذكرة بهذا. وحين ذلك قال أستاذ الفنون الجميلة في الجامعة: « أما ولم يعد التمثال جميلا رائعا، فكذلك لم تعد له فائدة تذكر.. فأمروا فرفع المثال، وصهر معدنه.

ودعا الحاكم أعضاء المجلس البلدي لعقد اجتماع، يتشاورون فيها: في أي شيء يستغلون المعدن.

قال الحاكم: « يجب علينا أيها الأعضاء أن نقيم تمثالا آخر، و إن هذا التمثال يجب أن يكون تمثالا لي..»

فوقف كل عضو من أعضاء المجلس وقال: « إن هذا التمثال يجب أن يكون تمثالا لي..

فتشاجروا جميعاً، وما زالوا يتشاجرون حتى تلك اللحظة التي سمعت فيها قصتهم.

وقال رئيس عمال المصنع وهو يصهر المثال: « أي شيء غريب هذا الذي لم يصهر..؟! إن هذا القلب الرصاصي لن ينصهر. ويجب علينا أن نقذف به بعيدا..، وهكذا قذفوا بالقلب على كومة من التراب. حيث استلقي الطائر الصغير.

قال الإله لأحد ملائكته المقربين: « أحضر لي أيها الملك أعز نفيسين على ظهر المدينة.»

فذهب الملك، وأحضر إلى ربه القلب الرصاصي، والطائر الذاوى.

قال الإله: « حسنا قد اخترت. ففي جنات الفردوس سيغني هذا الطائر، وعند عرشى سيسبح بحمدي هذا الأمير..»

العملاق الأناني

تعود تلاميذ المدرسة الصغار إذا ما انتهوا من دروس النهار أن يخرجوا عند الأصيل، ليقضوا وقتا في اللعب في حديقة العملاق. ولقد كانت هذه حديقة محبوبة كبيرة، يغطى أرضها بساط سندسى أخضر، تناثرت الأزهار الجميلة عليه، كأنها النجوم تزين صدر السماء، تضحك بها في أيام الربيع أثنتا عشرة شجرة من أشجار الخوخ، بأزهار لؤلئية ووردية، حيث تبدو في الخريف، فخورة بثمارها، وعلى أغصانها تغرد الطيور بألحان عذبة كانت تغرى الصغار لكي يتوقفوا عن اللعب ليستمعوا لها، وهم يصيحون صيحات الفرح: « ما أسعدنا ونحن هنا.».

وذات يوم رجع العملاق بعد زيارة لصديق له من العمالقة، استغرقت سبع سنين، حددت البحث شئون تهمهما. وما أن وصل الحديقة حتى لمح الأطفال يلعبون ويمرحون.

قال العملاق في صوت أجش جعل الأطفال يلوذون بالفرار: « ماذا تعملون هنا؟ إن كل إنسان يفهم أن حديقتي ملكي. ولن أسبح في المستقبل لأي إنسان أن يلعب فيها غيري..» ثم أقام جدارا عاليا حول الحديقة وعلق عليه لافتة تقول « سيدان كل من يتعدى هذه

الحدود.»

حقا.. لقد كان عملاقا تغمره الأنانية. والأطفال الصغار لم يعد لهم الآن مكان يلعبون فيه. وحاولوا اللعب في عرض الطريق، ولكنهم لم يستحسنوها، لأنها كانت قذرة، مليئة بالأحجار التي تناثرت هنا وهناك وأخذوا يحومون – إذا ما انتهوا من المدرس – حول الجدار المرتفع، متحدثين فيما بينهم عن جمال الحديقة، وهم يقولون: كم كنا بين أرجائها سعداء.»

وأقبل الربيع، فن تحت الأزهار، وظهرت صغار الطير، ولم يكن هنالك ما ينم عن الشتاء غير حديقة العملاق. لم تغرد على أفنانها الطيور، لأنها لم تر الأطفال هناك، ونسيت لذلك أن تزهر الأشجار.

وذات يوم أطلت زهرة جميلة برأسها من فوق الأعشاب، ولكنها ما لمحت لافتة العملاق حتى فاضت نفسها حسرات على الصغار، وانزلقت في جوف الأرض، حيث راحت غافية. ولم يكن معجبا بمنظر الحديقة البائس غير الثلج، والصقيع.

قال الثلج والصقيع معاً: «.. وهكذا سنبقى هنا طول العام.»

وغطى الثلج الأعشاب بردائه الأبيض، ولون الصقيع الأشجار بريق الفضة، ثم دعيا الريح الشمالية الباردة، لتكون مهما، فأقبلت في فراء الشتاء، تزمجر طول النهار حول الحديقة، حيث ألقت

بالمدخنة الطويلة على الأرض.

قالت الري الشمالية: « إن هذا المبهج سار أيها الإخوة ؛ ولكن علينا بدعوة البرد لزيارتنا.

وهكذا أقبل البرد، وأخذ يصل ثلاث ساعات كل يوم على قلعة العملاق، صلصلة متواصلة حتى هشم أحجارها، وأخذ يعدو بأنفاسه المتجمدة حول الحديقة بسرعة فائقة كانت أقصى ما يستطيع.

قال العملاق وهو جالس إلى نافذته ينظر إلى الحديقة الذاوية: « أنا لا أستطيع أن أنهم لم يتأخر هكذا الربيع. إني لأتمنى من كل قلبي أن يكون هنالك تحول في دورة الفصول.»

ولكن الربيع لم يقبل، وكذلك الصيف، ومنح الخريف كل حديقة ثماره الذهبية، ولكنه لم يمنح حديقة العملاق شيئا.

قال الخريف: « إن هذا العملاق أناني.. أناني.»

وهكذا كانت الحديقة في شتاء خالص، ترقص بين أشجارها الريح الشمالية، والبرد، والصقيع، والجليد. وذات صباح بينها كان العملاق مستلقيا في مهاده، سمع بعض النغمات الموسيقية الجميلة، ولقد رنت في مسامعه رنيناً عذراً جعله يعتقد أن موسيقى الحرس الملكي تمر به. ولم تكن هذه في الحقيقة إلا ثغر بدأت عصفور خارج

النافذة. ولكنه – وقد مضى عليه زمن طويل منذ أن سمع طائرا يغرد في الحديقة – بدت له الثغريدات أجمل موسيقى في العالم، وحينئذ أوقف البرد صلصلته، وصمتت الريح الشمالية، وهب من النافذة نسيم عبق، فقال العملاق: « إني لأعتقد أن الربيع قد أقبل...» وقفز من مخدعه، وأطل، فماذا رأي..؟

لقد رأى أجل منظر رأته عينه: فمن خلال فجوة في سور الحديقة انساب الأطفال الصغار، وجلسوا على أغصان الأشجار. فكان على كل شجرة طفل صغير، ولقد ابتهجت الأشجار برجوع الصغار إليها، وضحكت بأزهارها، وأخذت تروح بأفنانها فوق رءوسهم، وكانت العصافير تطير هنا وهناك: وأطلت الأزهار باسمة فوق رءوس الأعشاب لقد كان حقا منظرا جميلا، ولكن الشتاء كان قابعا هنالك في ركن من أركان الحديقة، كان أبعدها جميعا. يقف فيه طفل صغير، لم يستطع لصغره أن يتسلق الشجرة، وكان يدور حولها صائحا في مرارة وحزن. وكانت الشجرة البائسة مازالت متملقحة بالصقيع، والجليد – تزمجر عند رأسها الريح الشمالية.

قالت الشجرة: « تسلق أيها الطفل، وحنت فروعها كثيرا، ولكن الطفل كان صغيراً جدا.

وذاب العملاق لذلك أسى ولوعة، وقال: «كم كنت أنانيا... الآن عرفت لم يقبل الربيع..! سأضع هذا الطفل المسكين الصغير

على الشجرة، وسأحطم الجدار المرتفع، وستكون حديقتي ملعبا الأطفال إلى الأبد، وإلى الأبد..» حقا لقد كان أسفا لما فعل.

واستخفي العملاق نار على الدرج، وفتح الباب الأمامي بلطف، ودخل الحديقة ؛ وما لمحه الأطفال حتى ارتعدوا خوفا، وهربوا جميعاً.

فبدت الحديقة بعد ذلك شتاء، ولم يبق فيها غير الطفل الصغير الذي لم يعد منها، لأنه لم ير العملاق مقبلا، ذلك لأن عينيه كانتا مغرورقتين بالدموع، واقترب العملاق مستخفيا من الصبي، وأخذه بخفة بين يديه، ووضعه على الشجرة، فأضاءت لساعتها بالأزهار، وأقبلت الطيور تغرد، ومد الطفل ذراعيه، واف بهما عنق العملاق، وقبله. ولما عرف الصغار أن العملاق لم يعد شريراً، أقبلوا مسرعين، وأقبل مهم الربيع.

قال العملاق: «الآن.. هذه حديقتكم أيها الصغار.» وهدم الحائط بفاس كبير. وعند الظهيرة وجد العامة، وهم في طريقهم إلى السوق... العملاق يلاعب الأطفال في أجمل حديقة وقعت عليها العيون. نعم.. فلقد كان الصغار يقضون النهار كله في اللعب فيها، حتى إذا ما جن الليل أقبلوا لكي يودعوا العملاق.

قال العملاق: « ولكن أين رفيقكم الصغير أيها الأطفال

الصغار، ذلك الذي رفعته إلى الشجرة»

قال الصغار: « نحن لا ندري.. لقد ذهب الصغير.»

قال العملاق: « يجب عليك أيها الصغار أن تخبروه، وتحضروه في الغد معكم إلى هنا.»

ولكن الصغار قالوا: « إنهم لم يروه.. وهم لا يعرفون أين يسكن» فتحسر لذلك العملاق، لأنه كان يحبه كثيرا، وقد قبله.

وأخذ الأطفال يفدون على الحديقة عند كل أصيل بعد انتهاء الدرس يلاعبهم العملاق بين جنباتها، ولكن الطفل الذي أحبه لم تقع عليه عينه منذ ذلك الحين. ولقد كان العملاق في شوق إلى رؤية صديقه الأول، وكثيرا ما كان يتحدث عنه، و يقول: « كم أود أن أراه.»

ومرت السنون تباعا، و كبر العملاق وشاخ، وأصبح ضعيفا عاجزاً، لا يستطيع اللعب، جلس على أريكة ضخمة، وأخذ يراقب الأطفال وهم يلعبون، معجباً بحديقته.

قال العملاق: « عندي أزهار جميلة كثيرة، ولكن الأطفال أجمل هذه الأزهار جميعا.»

وفي صباح شتاء أطل العملاق من نافذته بينما كان يتدثر، إنه

الآن – لا يبغض الشتاء، لأنه يعلم أن الربيع يغفو، وأن الأزهار تخلد إلى الراحة.. وفي دهشة... مسح عينيه فجأة، ونظر.. لقد كان حقا ما يراه عجيباً...

ففي الركن النائي من الحديقة كانت تقوم شجرة، طوقتها أقاح بيض، وكانت أفنانها ذهبا، تدلدلت منها قطوف من الفضة، وقف تحتها الطفل الذي أحبه. وأسرع العملاق إلى الحديقة فرحاً حتى بلغ قرب الصبي.. وما دنا منه حتى احمر وجهه غضبا، وقال له:

« من ذلك الذي تجاسر على أن يصيبك بالجراح..! أيها الطفل.. من ذلك؟، أخبرني.. فقد أجرد له سيفي من غمده لأقتله..» ذلك لأنه كانت تبدو آثار مخلبين على راحتي الطفل الصغير، وقدميه.

قال الصبي: « كلا أيها العملاق... ولكن هذه هي جراح الحب...!»

فصاح العملاق: « بربّى من تكون أيها الطفل..؟!»

وانصبت عليه هالة من الخشية الغريبة، خر على إثرها العملاق راكعا أمام الصبي..

فتبسم الصغير، وقال:

« لقد سمحت لي يوماً أن أمرح في حديقتك أيها العملاق..
واليوم ستذهب معي لنمرح في حديقتي، التي هي جنة الفردوس.»

ولما أقبل الصفار إلى الحديقة في الأصيل، وجدوا العملاق قد استلقي ميتاً تحت أيكة، وقد غطته الأقاحي البيض.

أبو الهول الذي لا سرّ له

أخذت مكاني ذات أصيل خارج مقهى ذلابيه، لكي أشاهد غنى الحياة البارسية وفقرها. وكم كنت دهشاً أمام منظر الثراء والفقر الذي كان يمر أمامي، حين سمعت صوتا يناديني. وأدرت وجهي فرأيت لورد موريسون. لم نتقابل منذ أن كنا معا في الكلية من عشر سنين خلت، ولهذا كنت مغتبطا لكي أدنو منه، وأمد يدي لأسلم عليه. وهززنا راحتينا في حماسة. لقد كنا صديقين حميمين في أكسفورد، وكنت أحبه حبا جما. كان قسمها طلقا، ذا نفس عالية، ولقد كنا نقول عنه: إنه يستطيع أن يكون أعظم الرجال إذا لم يتكلم الصدق دائما. ولكني أعتقد أننا كنا استحسنه كثيرا لصفاء سريرته، وإخلاصه.

وجدته قد تغير تغيراً كبيراً. فقد بدا مشغول البال مرتبكا، وظهر كأنه وقع في شك حول بعض الأشياء. ولقد أحسست أنه لا يمكن أن يكون شكه شكا جديدا، لأن موريسون كان أكبر الميثولوجيين: فهو يؤمن بأسفار موسى الخمسة إيمانه بمجلس اللوردات، وهكذا استنتجت أن شكه كان حول امرأة، فسألته إذا كان قد تزوج.

قال موريسون: « أنا لا أفهم النساء جيدا..»

أجبته: « يا صديقي جيرالد.. إن النساء يعرفن للحب، لا لتفهمهن.

قال: « أنا لا أستطيع أن أحب حيث لا أستطيع أن أثق.»

قلت: « إني لأعتقد أن هنالك سرا في حياتك يا جيرالد ٠٠. أخبرني به.»

قال: « هيا لنركب.. فهذا المكان مزدحم جدا..لا.. لا نأخذ عربة صفراء.. أي عربة من هناك.. ولتكن هذه العربة الخضراء.» وفي لحظات قليلة كنا نخب في الميدان في اتجاه شارع مادلين.

قلت: « إلى أين... ؟»

قال: « إلى أي مكان تحب.. إلى المطعم الذي يوجد في حي لوا.. سنتناول هنالك شيئا، وستتحدث عما حول نفسك ٠

قلت: «أنا أود أن أسمع عما حول نفسك أنت أولا، فأخبرني بسرك»

فأخرج من جيبه حفيظة صغيرة، لها مقبض فضي، ووضعها في يدي، ففتحتها. لقد كان فيها صورة امرأة مديدة القامة، يبدو على محياها الاستخفاف. جمالها غريب بنظراتها المبهمة، وشعرها المطلق

المتهدل. إنها تبدو كحذرة لفت في فراء ثمين.

قال: « ما ترى في هذا الوجه ؟ أهو صادق..»

وتأملت وجهها مليا، إنه يبدو لناظرى وجه إنسان يكتنفه سر غامض، ولكن في كلتا الحالين لم أستطع أن أجزم إذا كان هذا السر خيرة أم شرا فجمالها تصب في قالب من الأسرار الخفية – والجمال الذاتي في الحقيقة ليس مرنا – والبسمة التي كانت تعبث على شفتيها كانت تبعد في خداعها، لكي تغرق في العذوبة.

صاح موريسون، وقد نفذ صبره: « حسن.. ما تقول..؟»

أجبته: « أنها الجوكوندا بين الضباب. هيا لأعرف كل شيء عنها..»

قال: « ليس هذا الآن، ولكن بعد العشاء. وابتدأ يتحدث عن. أشياء أخرى.

ولما أحضر الخادم القهوة والتبغ، ذكرت جيرالد بوعده، فقام من مقعده، وأخذ يذرع أرض الغرفة مرتين، أو ثلاث مرات ذهابا، و إيابا ثم جلس على أريكة يقص على هذه القصة الآتية:

قال: «كنت أسير مساء يوم، حوالي الساعة الخامسة في شارع وند، وكان هنالك تصادم عنيف بين العربات ؛ فامتنع المرور تقريبا.

وكانت تقف عربة صفراء محاذية لعبر الشارع، استرعت انتباهى لبعض الأسباب. وما أن مررت بها حتى أطل منها الوجه الذي أريتكه هذا الأصيل، ولقد أخذ بلبي سريعة، وأخذت أفكر فيه طول الليل، وطول الغد وكنت أسير بين ذلك الصف الممتد من العربات، مطلا في كل عربة، ومنتظر ا تلك العربة الصفراء، ولكني لم أعثر على فاتنتي المجهولة، وخيل إلى أنها قد تكون غالبا أضغاث أحلام، وبعد أسبوع من ذلك التاريخ كنت مدعوا للعشاء مع مدام دوراستيه، وكان وقت العشاء الساعة الثامنة، ولكن كنا ما زلنا منتظرين في حجرة الاستقبال. وأخيراً دفع الخادم الباب، وأعلن مجيء ليدى آلروي. نعم. لقد كانت هي السيدة التي كنت أبحث عنها.

وأقبلت في تؤدة، تبدو كأنها ضوء القمر يظهر من تحت نقاب. ولقد كنت مدفوعا بفرحي الشديد لأن آخذها إلى العشاء، وبعد أن جلسنا إلى المائدة، قلت لها في سذاجة: « أظن أني رأيتك ياليدى آلروى في شارع بوند منذ مدة.»

فشحب وجهها، وقالت في نبرات خافتة: « أرجوك.. لا تتكلم هكذا بصوت مرتفع، فلربما يسمعك أحد.»

وشعرت بالتعاسة تغمرني، لأني ابتدأت مقدمة غير لائقة.. واندفعت في موضوع الألعاب الفرنسية. وكانت تتحدث قليلا،

وكان حديثها دائما في نبرات موسيقية خافتة، و بدت كأنها تخشى إنسانا يستمع. ووقعت في حبها بجنون، وخرق. ولقد أثار الجو الغامض الذي يكتنفه سرها و يحيط بها غيرتي لكي أستطلع أمرها، ولما أوشكت أن تخرج بعد فترة قصيرة من تناول العشاء، رجوتها إذا سمحت لي أن أدعوها لكي أراها، فأسرعت لحظة، ونظرت من حولها خوفا من وجود أحد بالقرب منا، وقالت: « نعم.. وليكن ذلك غدا في الخامسة إلا ربعا..

ولقد رجوت مدام دوراستيه أن تحدثني عنها، ولكن كل ما أمكنني أن أعرفه عنها: هو أنها كانت أرملة، تملك منزلا جميلا في بارك لين، وللتحقيق العلمي بدأت بحثا حول الأرامل، هل يصلحن مثلا للزواج الموفق.. وتركتها، ورجعت إلى المنزل.

وذهبت في الغد إلى بارك لين في الوقت المحدد، ولكن الخادم أخبرني أن ليدى آلروى قد خرجت، فسرت إلى النادي حزينا، ووقعت في حيرة شديدة، و بعد تفكير طويل كتبت لها رسالة أرجوها فيها أن تسمح لي بأن أجرب حظي فأراها أصيلا آخر.

ولم يصلني رد أياماً كثيرة، ولكني أخيرا تسلمت رسالة صغيرة تقول: « إنها ستكون بالمنزل في الساعة الرابعة من يوم الأحد.» وكان مع الرسالة ملحوظة غريبة هي: « أرجوك ألا تكتب إلى هنا ثانية... سأشرح لك حينما أراك.»

وقابلتني يوم الأحد، وكانت رائعة حقا... ولما أوشكت أن أتركها سألتني أن أكتب إليها - إذا أتيحت لي الفرصة - معنونا رسالتي إلى: مدام نوكس أمينة مكتبة ويتاكرس جرين ستريت، وقالت: «هنالك أسباب تمنعني من أن أتسلم رسائل في منزلي.»

فمن خلال كلمة سبب عرفت الكثير عنها، وعرفت أن الإلغاز لن يتركها، وفكرت أحيانا أنها وقعت في قبضة أحد الرجال، ولكنها كانت تبدو بعيدة المنال، مما جعلني لا أستطيع أن أجزم.

وكان من الصعب على أن أصل إلى نتيجة ما، لأنها كانت كا حدى البلورات العجيبة، التي يراها الإنسان في دور الآثار، تظهر في لحظة شفافة وتظهر في لحظة أخرى معتمة.

وأخيراً عزمت على أن أسألها أن تكون زوجي، لقد كنت عليلا تعبا من هذا الكمان المتواصل، الذي تزجيه على كل زياراتي لها، وعلى رسائلي القليلة التي أبعث بها إليها.

وكتبت إليها على المكتبة أسألها إذا كانت تستطيع رؤيي في السادسة من يوم الاثنين المقبل، فأجابتني، وكنت في السماء السابعة من الفرح، لقد شغفت بها حبا بالرغم من السر الغامض الذي فكرت فيه حينئذ، وكنت أعلق عليه أهمية الآن... كلا إنها المرأة نفسها التي أحبها... لقد أزعجني سرها، وسلب عقلي، فلم رمتني

المقادير في شراكها.. ؟!

قلت: « لقد اكتشفت سرها الغامض اذا..؟»

قال: « أنا أخشي.. فأنت تستطيع أن تحكم بنفسك..»

ولما أقبل يوم الاثنين ذهبت لأتناول الغداء مع عمى، ووجدت نفسي حوالي الساعة الرابعة في شارع مارى ليلون، وأنت تعلم أن عمي يسكن في ريجنتس بارك، وأردت أن أصل إلى بيكاديللى، فسرت في منعطف خلال شوارع صغيرة. ولمحت فجأة أمامي ليدى آلروي، غارقة في خمارها، تسرع في سيرها كثيرا، ما أقبلت إلى آخر منزل في شارع بيكاديللى حتى تسلقت السلم وأخرجت مفتاحا، ودخلت إلى المنزل.

قلت لنفسي: « ها هنا السر..» وأسرعت، فعاينت المنزل إنه يبدو نوعا من الأمكنة التي يطرقها الناس البيت، وكان منديلها الذي أسقطته ملقى على عتبة المنزل فالتقطته، ووضعته في جيبي... وأخذت أفكر فيها أعمله... وانتهيت إلى أنه ليس لي الحق في أن أتجسس عليها، واندفعت إلى النادي، وطلبت رؤيتها.

وكانت تجلس على أريكة في ثوب الأصيل، وكان ثوبها من القصب المفضض، تمسكه مشابك زرق داكنة، كانت تضعها دائما حقا لقد كانت تبدو جميلة فاتنة في هذا الثوب.

قالت: « إلى جد فرحة برؤياك... ولم أخرج طول هذا اليوم.»

فحملقت فيها دهشا، وانتزعت المنديل من جيبي، وسلمته إليها.

قلت في هدوء: « انك أسقطت هذا في شارع كو منور هذا الأصيل ياليدى آلروى.»

فنظرت إلىّ في فزع، ولم تبدي أية محاولة لكي تتسلم المنديل.

قلت: « لم ذهبت إلى هناك..؟!»

قالت: « بأي حق تسألني..؟!»

قلت: « بحق رجل يحبك.. لقد أتيت إلى هنا لكي أسألك أن تكوني زوجتي..»

فوضعت وجهها بين راحتيها، وأخذت تبكي..

قلت: « لا بد أن تخبريني.»

فراحت واقفة، ونظرت إلىّ، وقالت: « لورد موريسون ليس هنالك من شيء أخبرك به.»

قلت: « لقد ذهبت لكي تقابلى رجلا..»

فشحب وجهها، وقالت: « لقد ذهبت لكي أقابل لا أحد..»

قلت: « ألا تتكلمين الصدق..؟!»

قالت: « لقد قلت..»

فطار عقلي شعاعا، وفهمت بكلمات مخيفة، واندفعت أخيرا خارج المنزل، وكتبت إلى رسالة بعثت بها إليها مغلقة ! ورحلت إلى النرويج برفقة ألن كولفيل.

ورجعت بعد شهر، وكان أول شيء قرأته في بريد الصباح خبر وفاة ليدى آلروى. لقد أصابها برد وهي في الأوبرا، وقضت نحبها في خمسة أيام باحتقان في الرئة، ورهنت نفسي للمنزل، ولم أقابل أحدا.

لقد كنت أحبها كثيرا.. لقد أحببتها حبا جنونيا.. فيا إلهي كيف عشقت هذه المرأة ؟!»

قلت: « هل ذهبت إلى المنزل الذي تسكنه.. ؟»

قال: نعم.. ذهبت ذات يوم إلى شارع كومون، ولم أكن أصدق النبأ، وعذبني الشك. قرعت الباب، ففتحت لى امرأة متوسطة الجمال، سألتها إذا كان لديها حجرات للسكن.»

قالت: « حسن.. إن حجرة الاستقبال يا سيدى قد تؤجر، ولكني لم أر الليدي منذ شهور ثلاثة، ولأن إيجارها لم يسدد بعد، فتستطيع أن تستأجرها.»

قلت لها: « أهذه هي السيدة.. ؟»

وأريتها الصورة.

قالت: « إنها هي بكل تأكيد.. فمتى ترجع يا سيدى.. ؟»

قلت: « إن الليدي قد توفيت..!»

قالت: « أو إني لأتمنى ألا يكون ذلك يا سيدى، فالسيدة كانت أحسن مستأجري، ولقد كانت تدفع لي جنيهات ثلاثة في الأسبوع لكي تجلس فقط في حجرات الاستقبال بعض الوقت.»

قلت: « أقابلت هنا أحدا..؟»

ولكن المرأة أكدت على أن ذلك لم يكن، وأنها كانت تأتي دائما بمفردها، وأنها كانت لا ترى هنا أحدا..

قلت: « فماذا كانت تعمل على وجه الأرض هنا.. ؟!»

قالت: « لقد كانت تجلس يا سيدى في حجرة الاستقبال، تقرأ كتبا فقط، وقد تتناول الشاي في بعض الأحايين.»

ولم أعرف ماذا أقول للمرأة بعد ذلك، وأعطيتها جنيها، وذهبت. والآن ماذا ترى معنى لهذا ؟! ألا تعتقد أن السيدة كانت تقول الحق ؟»

قلت: « إني لأعتقد.»

قال: « فلم إذاً كانت ليدى آلروى تذهب إلى هناك ?!»

قلت: « إن ليدى آلروى يا عزيزى جيرالد امرأة مولعة بالسر، لقد أخذت هذه الحجرات للتسلية، وهي تذهب إلى هناك يسترها خمارها، ظانة بذلك أنها بطلة لها ولع بالتستر، ولكنها لم تكن إلا أبا الهول الذي الأسر له..»

قال: « أتعتقد ذلك ?»

قلت: « إنى متأكد منه.»

وأخرج الحفيظة وفتحها، ونظر إلى الصورة وقال أخيرة: « إنى لدهش!»



صاحب الملايين الأنموذج

لا يستمتع المرء بمتع الحياة ما لم يكن ثريا، فالمجون من نصيب الأغنياء وليس من نصيب المعوزين، وعلى الفقراء أن يكدوا في طلب الرزق، فدخل ثابت خير من شباب فاتن.. هذه هي حقائق الحياة الحديثة الكبرى، التي لم يدركها هجى إرسكّين.

مسكين هجي..! لا بد لنا من أن نسلم بأنه لم يكن فتي عظيم الشأن يستطيع أن يضر أو ينفع، ولكنه كان يبدو مثال الملاحة بشعره الأسمر المجمد، ومحياه الطلق، وعينيه الرماديتين. وكان محبوبا عند الرجال كما كان محبوبا عند النساء، وجمع كل الفضائل إلا فضيلة كسب المال. خلف له والده حسامه، وتاريخ حرب الجزيرة في خمسة عشر مجلداً. فعلق الحسام على المرأة، ووضع كتاب التاريخ على الرف بين قلادة الرائد، والصحيفة القضائية.

وكان يعيش بمبلغ مائتين من الجنيهات في العام، أوصت به إليه عمة عجوز، وطرق كل أبواب الرزق، فاشتغل بمهنة الصرافة ستة أشهر، ولكن ماذا يعمل من كان كالفراشة بين الدببة، والثيران..؟!

وصار تاجر شاي مدة أطول من تلك، ولكنه سرعان ما مل بين نوعى البكو والسوشونج. ثم جرب بيع النبيذ الأبيض المعتق،

فكسدت تجارته.. وأخيرة أصبح لا شيء اللهم إلا شاباً وسيماً طروباً، قد أعطى البطالة مقوده.

والذي زاد الطين بلة أنه أحب. وكان اسم معشوقته لورا ميرتون، ابنة كولونيل متقاعد، أضاع مزاجه وذوقه في الهند نهائياً.

لقد أحبته لورا بكل قلبها، وكان هو على استعداد لكي يقبل الأرض عند قدميها، وكانا أجمل عاشقين في لندن، ولا يملكان فلسا واحدا.. وكان الكولونيل يحب هجي، ولكنه لم يكن يرغب في أن يحدثه هجي بأية خطبة. وكان دائما يقول له: « أقبل إلى يا بني عندما يتجمع لديك عشرة آلاف جنيه. حينئذ نستطيع أن نفكر في أمر الزواج.»

فكان هجي ينظر إليه مغموما عابسا، و يذهب إلى لورا لكي يجد بقر بها العزاء.

وبينما كان في طريقه ذات صباح إلى هولاند پارك، حيث تقيم أسرة ميرتون، خطر ليرى صديقا له عظما يدعى ألان تريفور. وكان ألان تريفور رساما. حقا.. إن قلة من الناس تستطيع ذلك اليوم، ولكنه كان فوق ذلك مهتد). والمتفننون كانوا أيضا أكثر قلة.

وكان رجلا غريبا فظا، نمش الوجه، ذا لحية حمراء كثة، ولكنه كان إذا أمسك الفرجون صار المتفنن الأول، وآياته كان يتهافت عليها الناس، وكان عظيم الميل لهجي من قديم، وذلك كان لجماله.

وكان كثيرة ما يقول: « على المتفنن ألا يصاحب من الناس إلا الظرفاء اللطفاء، أولئك الذين يجلبون اللذة الفنية عند رؤيتهم، والراحة العقلية عند محادثهم. إن المتأنقين من الرجال، والمحبوبات من النساء يجب عليهم أن يحكموا العالم، ولا بد من أنهم في النهاية سيحكمونه.»

إلا أنه بعد أن توطدت صداقته يهجي اشتد حبه له لذكائه، وخفة روحه وسماحة نفسه، وخول له الدخول في بهو الرسم بلا استئذان.

فلما دخل هجى بوما إلى صديقه، وجده يضم الأجزاء الأخيرة لآية رائعة تمثل منظرة من حياة رجل شحاذ. وكان الشحاذ نفسه واقفا على منصة عالية في أحد أركان بم و الرسم " وكان شيخا متهدما، ذا وجه كأنه الجلد المجمد، وذا مظهر يثير الشفقة. ألقي على كتفه رداء رماديا مهلهلا، ولبس حذاء باليا مرقعا، واتكأ بإحدى يديه على عصا غليظة، بينما أمسكت الأخرى قبعته الخرقة، يلتمس بها الإحسان.

فهمس هجي، وهو يصافح صديقه: « ياله من أنموذج عجيب..!»

فصاح تريفور بأعلى صوته: « أنموذج عجيب.. إني لأظن ذلك، فالشحاذون أمثاله لا نلتقي بهم كل يوم. إنه لقية يا عزيزى،

إنه خريدة حية. يا إلهي ترى أية آية رائعة كان يستطيع رمبرانت أن يرسمها له.؟!»

قال هجى: « ياله من مسكين عجوز. كم يبدو تعسا..! ولكني أظن أن ثروته في رأيكم أيها الرسامون إنما هي في وجهه.»

قال تريفور: « إنك حقا لا تود أن يبدو الشحاذ سعيد.. ولكن هل تود ذلك.. ؟»

قال هجي بينما وجد لنفسه مقعدا مريحا: « كم يأخذ الأنموذج أجرا على جلسته..؟»

قال تريفور: « شلنا في الساعة. قال هجي: وكم تأخذ أنت على آيتك يا ألان ٢ قال ألان: « أو... إلى آخذ على هذه ألفين...) قال هجى: « من الجنيهات ؟»

قال تريفور: « من الجنز فالرسامون والشعراء، والأطباء يتقاضون دائما بالجنز.»

صاح هجي ضاحكا: « حسن.. إني أرى أن يأخذ الأنموذج نسبة من الأرباح.. فالنماذج تتعب قدر ما تتعبون.»

قال تريفور: « إن هذا هراء.. لماذا.. أنظر إلى ما نعانيه ونحن منكبون على الدهان، وحين نقف طول النهار أمام إطار لوحة واحدة.»

إنه لجدير بك أن تتكلم يا هجي، ولكن أأكد لك أن هنالك لحظات يبلغ فيها الفن درجة الأعمال اليدوية، فلا تهدى فأنا مشغول.. دخن سيجارة واجلس صامتا.

وبعد قليل دخل الخادم، وأخبر تريفور أن صانع الأطر يريد أن يحدثه، فصاح تريفور وهو يخرج إليه: « لا تهرب يا هجى... فسأرجع بعد لحظة.»

واغتنم الشحاذ فرصة غياب تريفور لكي يستريح لحظة على خوان خشبي كان خلفه، وكان يبدو بأسا شقيا، لدرجة أن هجمي لم يملك نفسه من التحسر عليه. ووضع يده في جيبه ليري مقدار ما معه من النقود، فكان كل ما استطاع أن يجده جنيها واحدا، و بعض القطع النحاسية فقال لنفسه: « ياله من عجوز تعس، إنه في حاجة إليه ماسة أكثر مني. ولكن معنى هذا أني لا أتنزه أسبوعين... ثم عبر البهو، وألقي بالجنيه في يد الشحاذ.

فاضطرب الشيخ، وهفت على شفتيه ابتسامة خافتة، وقال له: «شكرا لك يا سيدى، شكرا لك..»

ثم أقبل تريفور، وانصرف هجى وقد احمر وجهه خجلا مما فعل، وقضى النهار مع لورا حيت حظي بتعنيف لطيف على إسرافه، ثم قفل راجعا إلى منزله.

وتسلل هجي في تلك الليلة إلى ياليت كِلَب حوالي الثانية

عشرة، فوجد تريفور جالسا بمفرده في حجرة التدخين، يحتسي كؤوس الخمر، فقال له: « خير يا ألان.. هل كملت اللوحة...؟»

قال تريفور: «كملت.. ووضعت في إطار يا بني.. وعلى ذكر اللوحة لقد جنيت ظفرا.. فذلك الأنموذج الشيخ الذي رأيته كان معجبا بك، ولقد حدثته عن كل ما يتعلق بك.. من أنت..؟ وأين تعيش.. وكم دخلك ؟ وأي آمال تحمل بين جنبيك...؟»

صاح هجى: « يا عزيزي الآن.. إني قد أجده في انتظارى كلا ذهبت إلى المنزل، ولكنك طبعا تهزل فقط.. يا لهذا الشيخ المسكين إلى أتمنى أن أقدم إليه يدا.. أعتقد أنه من الهول أن يعيش أي إنسان في مثل بؤسه. عندي في منزلي أكوام من الملابس القديمة، فهل تظن أنه يأمل في شيء منها ؟ ولم لا ؟ وأسماله قد أخذ منها البلى مأخذه..»

قال تريفور: « ولكنه يبدو باهرا في أسماله... أنا لا أرممه مطلقا في الفراك بأي مقابل، و إن ما تسميه أنت أسالا، أنا أطلق عليه خيالا، فما يبدو لعينيك شقاء يبدو رائعا لى.. وعلى كل فسأخبره بهديتك.»

قال هجي في جدة: « ألان.. إنكم أيها الرسامون بلا قلوب.»

قال تريفور: « إن قلب المتقن هو رأسه، وإن المهمة الملقاة على عاتقنا هي أن نرسم العالم كما نراه، لا أن نصلحه كما نعرفه،

ولكل عمله.. والآن حدثني كيف لورا ? فالأنموذج الشيخ كان مهتما بها.»

قال هجى: « أنت لا تمنى أن تقول أنك حدثته بأمرها..؟»

قال تريفور: « لقد فعلت حقا، وقد عرف الكثير عن الكولونيل الذي لا يرق له قلب، وعن لووا المحبوبة، وعن العشرة آلاف جنيه..»

صاح هجي في حنق، وقد اربد وجهه: « أحدثت ذلك الشحاذ المجوز بكل شؤوني الخاصة.. ?!»

قال تريفور باسماً: « إن هذا الشحاذ العجوز كما تطلق عليه يا بني هو أحد أغنياء أوربا، وهو يستطيع أن يشتري غدا جميع لندن دون أن يؤثر ذلك في ثروته، له منزل في كل عاصمة، وهو يأكل في صحاف الذهب، و يستطيع أن يمنع روسيا من الحرب إذا شاء..»

قال هجي: « ماذا تعني على وجه الأرض.. !»

قال تريفور: « إن ما أعني هو أن هذا الشيخ الذي رأيته اليوم في بهو الرسم هو البارون هو سيرج، وهو صديق حميم لي، يشتري جميع آياتى، وهذا النوع من الآيات أيضا، ولقد منحى تفويضا منذ شهر مضى لكي أرسمه في زي شحاذ، فماذا ترى ?! إنه مزاج رجل مليونير، وأنا جدير بأن أقول: إنه يبدو منظرا رائعا في أسماله، بل في

أسمالي أنا، وهذه الأسمال هي حلة قديمة، اشتريتها حينما كنت في أسبانيا..»

قال هجي: « البارون هو سبرج..؟» يا للسماء..! لقد تصدقت عليه بجنيه. وارتمى فزع على أريكة.

فصاح تريفور مقهقها: « تصدقت عليه بجنيه.. إنك لن تراه ثانية يا بني، فورطتك دائما في نقود الآخرين.»

قال هجي عابسا: « كان يجب عليك أن تخبرني بذلك يا ألان حتى لا أقع في مثل هذه الحماقة.»

قال تريفور: « لا ضير عليك في بدأت به يا هجى.. وأنا لم يخطر لي على بال أنك توزع الصدقات بهذه الطريقة. أستطيع أن أفهم تقبيلك لأنموذج جميل، أما منحك جنيها لإنسان قبيح فلا يخطر لي على بال، وعلاوة على ذلك: فأنا في الحقيقة لم أكن اليوم بالمنزل مع أحد من الناس، وحين أقبلت لم أعتقد أن البارون هو سبرج يحب أن يعلن اسمه وأنت تعلم أنه لم يكن في ثيابه الرسمية»

قال هجي: « وأي غبي ظنني..؟»

قال تريفور: « ليس إلى هذا الحد، فقد كان في سرور كبير، حينها ذهبت، وأخذ يضحك في سره، ويفرك راحتيه المجعدتين، ولم أستطع أن أتبين لم كان راغبا في أن يعرف الكثير عنك، ولكني

أستطيع أن أدرك كل شيء الآن: فهو سير بي جنيهك يا هجي، وسيدفع لك الأرباح كل ستة أشهر لكي تكون له نادرة، يقصها على المائدة.»

فزمجر هجي وقال: «يالى من شقي! الأولى بي أن ألزم الفراش، وعليك يا عزيزي ألان ألا تخبر أحدا، فأنا لن أجرؤ على أن أرى الناس وجهى في المجامع.»

قال تريفور: « إن هذا هراء يا هجى، فعملك هذا يدل على ما تحمل نفسك من حب للخير، دخن سيجارة أخرى، ولا تهرب، وتحدث عن لورا قدر ما تحب.»

ولكن هجي لم يتوقف، بل ذهب إلى المنزل، وهو يشعر بالتعاسة تاركا ألان تريفور في حمى من الضحك.

وبينما كان في صباح الغد أمام المائدة أقبل إليه الخادم بطاقة كتب عليها: « المسيو جوستافى ناودن رسول البارون هو سبرج.»

فقال هجي لنفسه: « أظن أنه أقبل لكي أقدم الاعتذار.» وأمر الخادم أن يأذن للزائر بالدخول.

فدخل شيخ وقور، يضع على عينية منظارا ذهبيا، ذو شعر أشيب وقال في نيرة فرنسية رقيقة: « هل لي شرف التحدث مع المسيو إرسكين؟

فانحنى له هجي، ثم أردف:

« لقد أقبلت من لدن البارون هو سبرج... فالبارون.»

فقاطعه هجي متلعثما، وقال: « أرجوك يا سيدي أن تبلغه أصدق معاذيرى»

قال الشيخ باسماً: « إن البارون قد أرسلني إليك لكي أسمك هذا الكتاب.»

ومد يده بغلاف مغلق، كتب عليه: « هدية عرس إلى هجى إرسكين ولورا ميرتون، من شحاذ عجوز.» وكان بداخله حواله بعشرة آلاف جنيه.»

ولما اقترنا كان ألان تريفور شاهد الزواج، وألقى البارون خطبة النكاح على مائدة العرس.

فقال ألان: « إن نماذج صاحب الملايين نادرة، ولكن بربي إن أنموذج أصحاب الملايين أندر...»

طفل الكوكبة

أخذ حطابان يوما طريق العودة إلى منزلهما داخل غابة من غابات الصنوبر وكان الوقت ليلا قارس البرد، وقد تراكم الثلج كثيف على الأرض وعلى أغصان الأشجار. ووالي الصقيع وهما يسيران تحطيم الأفرع الصغيرة النامية على جانبي الأفرع الكبيرة. ولما بلغا منحدراً جبلياً شاهدا السيل معلقا في الفضاء، لأن ملك الثلج كان قد قبل ما بين عينيه.

وكان الجو قارساً شديد البرد، حتى أن الحيوانات، والطيور لم تدرى ماذا تفيد منه، وعوى الذئب بينما كان يجري بين الأغصان المحطمة، وذيله بين ساقيه، وقال: « إن هذا طقس فظيع، لم لا تعطيه الحكومة عنايتها..»

وغرد الكروان وقال: « لقد ماتت الأرض العجوز، وهم الآن قد أدرجوها في أكفانها البيض.»

وهمست الورق الرمادية: « إن الأرض ستتزوج، وهذا هو رداء عرسها» ركان قد عض الجليد أقدامها بزمهريره، ولكنها كانت تحس في داخل نفسها أنه من الواجب عليها أن يكون لها رأي خيالي في الموقف.

فزمجر الذئب، وقد كان له عقل عملي كامل، لا يخيب مطلقا في الإدلاء بحجة قوية، وقال: « إن هذا هراء، ولقد قلت لكن إن هذا كله هو خطأ الحكومة»

وقال الهدهد، وكان قد ولد فيلسوفا: « حسن.. أما أنا فلا أهتم تفسير نظرية تختص بجوهر الفرد، فإذا كان الشيء هكذا، فهو هكذا. والآن إن الجو القارس مخيف..»

وكان الجو حقا قارسا مخيفا، وكانت أفراد السنجاب الصغيرة، التي تأوي في شجرة الشر بين تحك أنوفها لتدفيء نفسها، وكانت الأرانب تتلوى في جحورها، ولم تكن لتجرؤ حتى على أن تنظر خارج أوكارها.

ويظهر أنه لم يكن هنالك أحد يستمتع بهذا الجو غير طيور البوم الكبيرة، ومع أن ريشها كان قد تصلب من البرد، إلا أنها لم تكترث بذلك، وحملقت بأعينها الصفر، ونادت بعضها، وقالت: « أي جو جميل أصبح لنا.»

وأغذّ الحطابان السير، وهما ينفذان أصابعهما في يأس، و يطبعان بنعليهما على قطع الثلج. ولقد غاصا مرة في كثيب من الجليد، وخرجا بيضاوين كأنهما طحانان يطحنان القمح. وزلقت أقدامهما مرة على جليد متصلب أملس حيث تجمدت هناك مياه آذار، فسقطت القضبان من حزمهما، وكان عليهما أن يلتقطاها،

ويربطاها ثانية.

وحسبا أخرى أنهما فقدا طريقها فتملكه افزع عظيم، لأنها عامان أن الجليد قاس على أولئك الذين ينامون بين أحضانه، ولكنهما كانا ينقان في سانت مارتن، الذي يحرس المسافرين و يقتفي أثرهم، و سارا بحذر حتى بلغا أخيراً ظاهر الغابة، ولمحا من تحتهما بعيدة في الوادي أضواء القرى التي فيها يسكنون.

ولقد سُرّا سروراً عظيماً بنجاتهما، ومن شدة الفرح ضحكا بقهقهات عالية، وبدت الأرض لناظريهما كأنها زهرة من الفضة، والقمر كأنه زهرة من الذهب.

ومع ذلك فقد اكتأبا بعد أن ضحكا، لأنهما تذكرا فاقتهما، فقال أحدهما للآخر: « لماذا تفرح أيها الصديق، ألا ترى أن الحياة جديرة بالأغنياء، وليست جديرة بفقراء مثلنا ؟ لقد كان خيرا لنا لومتنا من الزمهرير في الغابة، أو افترسنا وحش ضار.»

أجاب رفيقه: « لقد أعطى الكثير حقا لبعض الناس، ومنح الآخرون قليلا.. لقد كبل الظل الأرض بقيده، ولم يكن هنالك مساواة فيها في شيء خلا من الأسى.»

ولكنهما بينما كانا يندبان شقاءها حدث هذا الأمر المجيب. فقد هوى من السماء كوكب جميل لامع، وانزلق من جانب السماء مار بالكواكب الأخرى في طريقه. و بداهما وهما ينظران متعجبين

أن ينزو يا خلف خميلة من شجر الصفصاف، يقوم بجوارها حظيرة لا تبعد أكثر من إلقاءه حجر، وصاحا: « ماذا.. إن هناك دلو من ذهب، من منا يجده.. ؟» وعدا الرجلان، وكم كانا متلهفين على الذهب..

وأسرع أحدهما أكثر من رفيقه، فسبقه، وشق طريقه بين أوراق الصفصاف حتى وصل إلى الجانب الآخر، فتأمل..! لقد كان هنالك حقا شيء من الذهب ملقى على الجليد الأبيض أسرع الرجل لكي يصل إليه، ثم انحنى ووضع يده عليه. ولقد كان ملاءة مطرزة بالذهب على شكل نجوم مطوية طيات كثيرة. ثم صاح في صديقه وقال: « إنه قد وجد الكنز الذي هوى من السماء، و بعد أن لحق به رفيقه جلسا فوق الجليد، وأخذا يفكان طيات الملاءة لكي يقتسما قطع الذهب.. ولكن وا أسفاه..! فانه لم يكن بها ذهب أو فضة، أو أي نوع من الكنوز. بل كان فيها طفل صغير نائم.

فقال أحدهما للآخر: « إن هذا لنهاية مرة لأملنا. إننا لم تحظ بحظ رائع. وماذا يفيد طفل رجلا ؟ لنتركه هنا فنحن فقيران، ولنا أطفال لا يحتمل أن نعطى قوتهم للآخرين.»

ولكن رفيقه أجاب: « لا يا صديقي، فترك هذا الرضيع لكي يموت هنا في الجليد خطيئة. ومع أني رجل فقير مثلك قليل طعامي، ولدى أفواه كثيرة تأكل، إلا أني سأذهب به إلى المنزل لكي تعنى به

زوجى.»

وهكذا حمل الصغير بكل حنان، ولفه بالملاءة لكي يدرأ عنه قارس البرد، وسار في طريقه إلى القرية، فتعجب صديقه كثيرا من حماقته، ومن رقة قلبه.

ولما بلغا القرية قال له رفيقه: « لقد أخذت الطفل فأعطني الملاءة، لأنه من اللائق أن نقتسم.»

ولكنه قال له: «لا يا صديقي فالملاءة لا تخصني ولا تخصك، ولكنها ملاءة الصغير. وتمنى له رحلة آمنة، وذهب إلى منزله وقرع الباب

ولما فتحت له امرأته، ورأت أن زوجها قد عاد إليها آمنا، طوقت عنقه بذراعيها، وقبلته، وأخذت من على عاتقه حزمة الحطب، وأزاحت الجليد من فوق حذائه، وطلبت منه أن يدخل.

ولكنه قال لها. « لقد وجدت شيئا في الغابة أحضرته لك لكي تشمليه بعنايتك. ثم إنه لم يتحرك خطوة واحدة بعيدا عن عتبة المنزل.

فصاحت امرأته: « أي شيء هذا.. ؟ أرنيه.. فبيتنا خاو، وتنقصه أشياء كثيرة.، فأزاح الملاءة قليلا، وأراها الرضيع.

فزمجرت المرأة، وقالت: « وا أسفاه أيها الرجل الطيب..!

أليس لدينا أطفال كافية حتى نحتاج إلى عفريت يجلس بجوار المدفأة ؟ ومن يدرى فلربما يجر علينا سوء الطالع...؟! ثم كيف نعني به... ؟!» وكانت مستاءة من وجوده.

قال زوجها: « لا يا عزيزتي.. ولكنه طفل الكوكبة. وأخبرها قصة وجوده.

ولكن غضبها لم يسكن، وسخرت منه، وكلته في غلظة، وصاحت: د هل لنا أن نطعم أطفال الآخرين، وأبناؤنا في حاجة إلى القوت ؟ من يرحمنا.. ومن يطعمنا..؟»

قال زوجها: « ليس غير الله يعول الطير، ويمنحها القوت..»

فسألته: « ألا تموت الطيور جوعا في الشتاء... والآن أليس الجو شتاء...؟»

ولكن الرجل لم ينبس ببنت شفة. ولم يتحرك بعيدا عن مدخل المنزل

وهبت ريح باردة، اقتحمت الباب، جعلت امرأة الحطاب تقشعر، وتقول له: « ألا توصد الباب من دوني، فقد أصابني البرد، فمنه يدخل الهواء القارس في المنزل..»

قال الحطاب: « في المنزل حيث يوجد قلب قاس ألا تأتي دائما ريح عاتية !؟» ولكن المرأة لم تجبه، بل دبت حثيثاً كي تقترب من

النار.

وبعد لحظات رجعت إليه، وعيناها مغرورقتان بالدموع، فأسرع إليها، ووضع الرضيع بين ذراعيها فقبلته، ووضعته في مخدع صغير كان ينام فيه أصغر أطفالها، وأخذ الخطاب في الغد الملاءة العجيبة المطرزة بالذهب ووضعها في صندوق كبير عنده، وأخذت امرأته قلادة الكهرباء التي كانت تطوق عنق الصغير، ووضعتها في الصندوق أيضا.

وهكذا شب طفل الكوكبة مع أطفال الخطاب، وجلس معهم أمام خوان واحد، وكان رفيقهم في أوقات اللعب، وازداد جمالا سنة بعد سنة حتى أن جميع سكان القرية امتلئوا عجبا من جماله، فبينما كانوا جميعا سمر الوجوه، سود الشعور، كان الصغير أبيض الوجه، لطيف البشرة، كأنه من العاج، وكانت تجاعيد شعره كحلق زهرة العباد، وشفتاه كوريقات زهرة حمراء وعيناه كأنهما بنفسجتان تنموان بجوار نهر فرات ماؤه، وجسمه كنرجسة قد اكتمل نموها.

ولكن هل شجعه جماله على ارتكاب الحماقة؟ فقد شب معجبا بنفسه، أنانيا، واحتقر أطفال الخطاب، وأطفال القرية، وكان يقول لهم: « إنهم من أصل وضيع بينما هو نبيل الأصل، قد تفرع من كوكبه:» ونصب نفسه رئيسا لهم، وأطلق عليهم خدامه، ولم يشفق على الفقراء، أو مكفوفي البصر، أو ذوي العاهات، بل كان

يرجمهم بالأحجار ويسوقهم إلى قارعة الطريق، و يأمرهم أن يطلبوا الصدقة في مكان آخر، فلم يقبل على القرية بعد ذلك غير الصعاليك.

لقد كان حقا إنسانا تسلح بالجمال، محبا لنفسه، يهزأ بالضعفاء وذوى العاهات، ويتندر عليهم وكان في الصيف حين تهدأ الرياح يجلس بجوار بئر في بستان كاهن، ينظر فيها مرحبا بصورته الفاتنة، و يضحك فرحا بجماله.

وكان الحطاب وامرأته يزجرانه كثيرا، ويقولان له: «لم تقسو على أولئك الذين يفتقرون إلى العطف، ونحن لم نعاملك كما تعامل أولئك الذين دمروا..»

وكان كثيرا ما يبعث الكاهن في استدعائه، ويكد نفسه في إرشاده كدا، لكي يعلمه محبة المخلوقات، ويقول له: « إن الفراشة أخت لك فلا تؤذها، والطيور التي تطير في الغابة تعيش بحريتها، فلا تمسكها لكي تعبث بها، لقد خلق الله الحشرة عمياء، والعظاية، وكل لها مكانتها فمن تكون أنت حتى تجلب الشقاء لدنيا الله، وكل المخلوقات تمجده، حتى ماشية الحقل.؟»

ولكن طفل الكوكبة لم يستمع لكلماتهم، بل عبس في وجوههم، وضحك، ورجع إلى رفاقه وقادهم، وتبعه رفاقه لأنه كان جميلا، ويستطيع أن يعدو بعيدا، و يرقص، و يلعب بالألحان، و كانوا

يتبعونه أينما يقودهم» و يعملون بما يأمرهم به مهما كان ذلك الأمر.

وإنهم ليضحكون إذا سمل أعينى العظاية بقصبة رفيعة، ويضحكون إدارمي المجذوم بالأحجار، و يضحكون لكل أمر يقوده إليه، ولقد صاروا قساة القلوب كما كان هو قاسي القلب.

ومرت في أحد الأيام، في شوارع القرية امرأة مسكينة سائلة، كان دثارها رثا مهلهلا، وأقدامها تنزف الدم من وعورة الطريق، وكانت في حالة يربي لها، فجلست تحت شجرة الكستناء لكي تريح نفسها مما ألم بها من تعب.

وما رآها الطفل حتى قال لرفاقه: « انظروا.. إنه لتجلس هنالك تحت هذه الشجرة الجميلة المورقة، امرأة قبيحة المنظر.. تعالوا لنطردها من هناك، فهي قبيحة لا تستحق المعروف»

وهكذا أقبل الطفل بالقرب منها، ورماها بالحصى، وهزئ بها، فنظرت إليه والهلع باد في عينيها، ولكنها لم تحول عنه نظرها.

وما رآها الخطاب، الذي كان يشق الخشب بوجهه الكاسف، حتى أسرع إليه، ووبخه، وقال له: « إنك حقا قاسي القلب، ولا تعرف الرحمة. أي خطيئة عملها هذه المرأة المسكينة حتى تعاملها بمثل هذه المعاملة. ?!»

فاربدَّ وجه الصغير من الغضب، وضرب بقدمه على الأرض، وقال: « من تكون أنت حتى تسألني عما أفعل.؟! إني لست ابنا لك لأطيع أوامرك.»

قال الحطاب: « إنك تتكلم الحق يا بني.. ومع ذلك ألم أظهر لك الشفقة منذ أن وجدتك في الغابة..؟!»

ولما سمعت المرأة هذه الكلمات صرخت صرخة مروعة، وسقطت مغشيا عليها، فحملها الحطاب إلى منزله، وأسعفتها زوجه.

وبعد أن أفاقت وضعا أمامها طعاما وشراباً، وطلبا منها أن تطمئن رُوَعها.

ولكنها لم تأكل، ولم تشرب، بل قالت للحطاب: « هلا تخبرني أن الطفل قد وجد في الغابة. ؟ وأن هذا لم يكن إلا منذ عشر سنين من هذا اليوم ؟»

قال الحطاب: « نعم: لقد وجدته في الغابة منذ عشر سنين من هذا اليوم.»

صاحت المرأة: وما العلامات التي وجدتها معه.. ألم يكن عاريا تطوق رقبته قلادة من كهرباء، ويلفه ملاءة مطرزة بالذهب على شكل نجوم.؟

قال الحطاب: « إنه حقا كان كما تقولين..» وأخرج الملاءة،

والقلادة من الصندوق الذي حفظهما به، وأراها إياها.

فبكت المرأة من الفرح، وقالت: « إنه ابني الصغير الذي فقدته في الغابة.. أرجوك أن ترسل في إحضاره، فقد جبت جميع الدنيا باحثة عنه.»

وهكذا ذهب الحطاب وزوجه، ونادیا طفل الكوكبة، وقالا له: د هيا فادخل إلى المنزل، فهنالك ستجد أمك التي تنتظر مجيئك إليها.»

وهكذا أسرع الطفل إلى المنزل، وقد امتلأ عجبا، وفرحا... ولكنه ضحك احتقارا حين رأى تلك المرأة التي كانت تنتظره، وقال: «أين هي أمي.. ١٨ فأنا لا أرى هنا غير هذه المرأة المسكينة النجسة.»

قالت المرأة: « إني لأمك.»

صاح الطفل في حنق: « إنك حمقاء إذ تقولي هذا.. فأنا لست ابناً لك أيتها القبيحة يا ذات الخرق البالية. ولهذا فلتخرجي من هنا، ولا تجعليني أرى وجهك القبيح مرة ثانية.»

صاحت المرأة: « ولكنك حقا أنت ابني الصغير الذي ولدته في الغابة.» وجثت على ركبتيها، ومدت ذراعيها لكي تطوقه، وتمتمت: إن الشطار قد سرقوك مني، وتركوك لكي تموت وحيدا...!

ولقد عرفتك حينما رأيتك، وعرفت العلامات أيضا.. عرفت الملاءة المطرزة بالذهب، وكذلك قلادة الكهرباء، ولهذا فإني أدعوك لكي تقبل معى، فلقد جبت الدنيا باحثة عنك.. تعال معي يا بني، فأنا في حاجة إلى حبك...»

ولكن الطفل لم يتحرك من مكانه، وأوصد من دونها أبواب قلبه ؛ ولم يسمع هنالك صوت غير صوت المرأة تبكي ألماً...!

وتحدث إليها أخيرا، وكان صوته متعجرفا، وقال لها: «لقد كان الأجدر بك إذا كنت أما لي حقا أن تنتظرى بعيدة، ولا تأتي إلى هنا، لكي تجلي إلى المسار، وأنت ترين أني أعتقد أني ابن لأحد الكواكب، لا ابناً لسائلة فقيرة، كما تخبرينني بذلك.. ولهذا فاذهبي من هنا.. ولا تجعليني أراك مرة ثانية».

فصاحت المرأة: « وا أسفاه.. أفلا تقبّلني قبل أن أرحل، فلقد قاسيت كثيرا لأجدك»

قال الطفل: « لا.. فأنت قبيحة جدا، وحري بي أن أقبل أفعى، أو ضفدعة لا أن أقبلك أنت..»

وهكذا هبت المرأة واقفة على قدميها، وذهبت على وجها في الغابة تبكي بكاء مرا.

واغتبط الصغير حينما ذهبت، وأسرع إلى رفاقه لكي يلعب

معهم، ولكنهم سخروا منه حينما رأوه مقبلا عليهم، وقالوا له: « أنت قبيح كالضفدعة، شرس الأفعى ؟! اغرب عن هنا، فنحن لا نحتملك تلعب بيننا..» وطردوه من الحديقة بعيدا.

فعبس الطفل، وقال لنفسه: « أي شيء ذلك الذي تقوله الصبية لي.. ؟! سأذهب إلى البئر، وأنظر فيها، وهي لا بد ستحدثني بجمالى.»

وهكذا ذهب إلى البئر، ونظر فيها فانظر.. لقد كان وجهه كيحيا الضفدعة، وعلت جسمه قشور كقشور الثعبان، وألقى بنفسه على الحشائش، وقال: « إن هذا قد جاءني حقا بسبب خطيئتى، فلقد رفضت أمي، وطردتها، وكنت متكبرة قاسيا عليها، ولهذا فسأذهب لأفتش عنها في جميع بقاع الأرض، ولن أستريح حتى أجدها.

ولحقت به ابنة الحطاب الصغيرة، ووضعت يدها على كتفه، وقالت له: « ما الذي أفزعك فأفقدك هدوءك.. ؟ ! ابق معنا، ولن أهزأ بك.»

فقال لها: «لا.. لن أبقى هنا.. فقد كنت قاسيا على أمي، ولقد أرسل إلى هذا الشر كعقاب لي على ذلك، ولهذا فسأرحل من هنا، وسأجوب بقاع الأرض حتى أجدها، وحتى تهب لي غفرانها»

وهكذا أسرع مبتعدةً في الغابة، ونادي أمه لكي تأتي إليه،

ولكن لم يكن لندائه من جواب.

لقد ناداها طول النهار، وعند مغيب الشمس استلقي لكي ينام على مهد من ورق الشجر، وكانت الطيور والحيوانات تعدو مبتعدة عنه، لأنها تذكرت وحشيته، وكان وحيدا إلا من الضفدعة التي كانت تحرسه، والأفعى التي كانت تزحف بالقرب منه.

واستيقظ في الصباح، فاقتطف بعض البراعم المرة وأ كلها، وسار في طريقه في الغابة العظيمة يبكي بكاء مرا، وكان يسأل كل شيء يمر به عل يعرف مكان أمه..!!

فقال للعظاية: « أنت أو ما تستطيعين السير في غياهب الأرض ؟ أخبريني أهنالك أمي. ؟!»

أجابت العظاية: « كيف أعلم وقد سملت عيني. ؟!»

وقال للكروان: «أنت أو ما تستطيع الطيران فوق رؤوس الأشجار العالية، وترى الدنيا جميعا ؟ أخبرني، ألا تستطيع رؤية أمي..!»

أجاب الكروان: «كيف أطير وقد قصصت جناحى.؟!»

وقال للسنجاب الصغيرة، التي تسكن وحيدة في شجرة الكستناء « أين أمي..»

قالت السنجاب: «لقد قتلتني، أو تبحث عنى لتقتلني مرة

أخرى..؟»

فبكى طفل الكوكبة، وحني رأسه، وطلب الغفران من إله المخلوقات، وذهب في الغابة يضرب فيها باحثا عن المرأة المسكينة، حتى وصل في اليوم الثالث إلى عبر الغابة الآخر، وا نساب في أسفل الوادي. وسخر الأطفال منه حين مر في القرى، ورجموه بالحصى، ولم يكن ليسمح له الفلاحون حتى لينام في حظائر الماشية، كي لا يصيب الحصول المخزون بالقذارة، ولقد كان قبيحا جدا حين يبدو للناظر إليه، وطرده الفعلة ولم يكن هنالك إنسان واحد يحنو عليه، ولم يسمع عن السائلة الفقيرة، التي كانت أما له في أي مكان، مع أنه جاب الأرض مدة ثلاث سنين، ولكثيرا ما كان يبدو له أنه يراها في الطريق أمامه، ولك كان يجري اللحاق بها، حتى أثخنت الأحجار قدميه بالجراح، إلا أنه لم يستطع اللحاق بها.

ولقد أنكر أولئك الذين يسكنون على جانبي الطريق أنهم رأوها، أو رأوا شبيها لها، وكانوا يتنادرون عليه فقد ضرب في الدنيا مدة استغرقت ثلاث سنين، ولم يكن له فيها من حب، أو حنان، ولكنها كانت دنيا كالتي صنع منها لنفسه أيام كبريائه.

وأقبل ذات مساء على مدينة ذات أسوار ضخمة، كانت تقع على شاطئ نهر، واقتحم با بها متعبا، مسلوخ القدمين، ولكن الحراس الذين وقفوا على مدخل المدينة أوقفوه، وقالوا له في غلظة:

« ما عملك في المدينة أيها الطفل. ؟»

قال: « إني أبحث عن أمي فأرجوكم أن تسمحوا لي بالمرور في المدينة، فقد تكون أمي فيها.»

ولكنهم سخروا منه، وهز أحدهم لحية كثة وهو يضع درعه، وقال له: « أصدقني إن أمك لن تنفرج أساريرها إذا رأتك، فأنت أكثر قبحا من ضفدعة المستنقعات، أو الأفعى التي تحبو في البرك، فإليك عنا، فأمك لا تسكن هذه المدينة.»

وقال له آخر، كان يحمل علما أصفر اللون: « من تكون أمك؟ ولم تبحث عنها؟..»

قال: « إن أمي مسكينة مثلي، ولقد عاملتها بالسوء، فأسألك – إذا كانت تسكن هذه المدينة أن تسمح لي بالمرور فيها، فلربما تهب لي غفرانها.»

ولكنهم لم يسمحوا له، ونخسوه بحرابهم.

وبينما كان يبكي ذاهبا إلى حيث تلاقى به قدماه، أقبل حارس رصع عدته بأزهار وهت بالذهب، ورسم على بيضته أسدا له أجنحة، وسأل الجند عن ذلك الذي طلب المرور إلى المدينة، فقالوا له: « انه مسكين، وطفل مسكينة، ولقد طردناه.»

ولكنه قال لهم ضاحكا: «لا.. ولكن كان يجب أن نبيع هذا

الشيء القبيح كملوك، ونشترى بثمنه قدحا من خمر معتقة.»

فصاح رجل قبيح الطلعة، كان يمر بهم، وقال: « أنا اشتريه بهذا الثمن.. ولما نقدم الثمن أخذ طفل الكوكبة، وأدخله المدينة.

وبعد أن سارا في شوارع عديدة، وصلا إلى باب صغير، يفتح في حائط مغطى بشجرة من أشجار الرمان. ولمس العجوز الباب بخاتم من العقيق فانفتح، وهبطا خمس درجات قدت من نحاس أصفر إلى حديقة مليئة بخشخاش أسود، وجرار من صلصال محروق، وفك" من شملته حمالة من حرير مزركش، وربط بها عيني الصغير، وقاده أمامه، وحين فكت الحالة من فوق عينيه، وجد الصغير نفسه في خزانة أضيئت بقنديل من الزيت. ووضع الرجل أمامه بعض الخبز العطن في صحفة، وقال له: «لتأكل.» و بعض الماء الملح في قدح، وقال له: و لتشرب. وخرج وأغلق الباب خانه، وأحكم غلقه بسلسلة من الحديد.

وأقبل عليه في الغد عابسة الرجل الشيخ – الذي كان حقا داهية من السحرة الليبيين، أخذ فنه عن رجل كان يسكن قبور فراعنة النيل، وقال له: « أيها الصبي إنه توجد في غابة، لا تبعد عن باب هذه المدينة (جيأورس) ثلاث قطع ذهبية: إحداها من الذهب الأبيض، والثانية: من الذهب الأصفر، والثالثة من الذهب الأحمر، عليك أن تحضر لى اليوم قطعة الذهب الأبيض.. وسألهب جسمك

بمائة سوط إذا لم تحضرها لي، فاخرج الآن سريعا، وسأنتظرك عند مغيب الشمس بالقرب من باب الحديقة.

واعلم أنه لابد من أن تحضر لى قطعة الذهب الأبيض أو يصيبك الشر، فأنت ملك يميني، ولقد اشتريتك بثمن قدح من خمر معتقة.»

وربط عيني الصغير بحالة الحرير المزركش، وقاده في أرجاء المنزل وفي حديقة الخشخاش، وطلع الدرج النحاسي، ودفعه إلى الطريق حين فتح الباب بخاتمه.

وخرج الصغير من باب المدينة التي أخبره بها الساحر.

ولقد كانت الغابة جميلة جداً للناظر إليها بالعين المجردة. تبدو كأنها مليئة بطيور مغردة، وزهور لها أريج عبق. دخلها طفل الكوكبة فرحا، ولكن هل أغناه جمالها قليلا.. فأينما كان يذهب كان يشرع العوسج والشوك حرابهما لكي تحدق به. وكم لدغة القراص الشرير، وكم طعنه الحسك بخناجره حتى صار في ضيق من أمره شديد، ولم يجد قطعة الذهب في أي مكان، مع أنه يبحث عنها من الصباح إلى الظهيرة، ومن الظهيرة حتى مغيب الشمس. وفي الغروب يم وجهه شطر المنزل باكياً منتحباً، لأنه كان يعلم أي قضاء مخبأ له.

ولكنه حين وصل ظاهر الغابة قافلا سمع صرخة انبعثت من خميلة كأنها صرخة إنسان متألم، فأسرع راجما إلى مصدر الصوت،

ناسيا أحزانه فرأى هنالك أرنبا صغيرة، وقعت في شرك نصبه أحد الصيادين.

وأشفق عليها، وقال: « إنني نفسي عبد مملوك، فهل لي أن أهب لك حريتك ؟!»

قالت الأرنب. « إنك حق قد وهبت لى حريتي، فإذا أعطيك مقابل ذلك..؟!»

قال طفل الكوكبة: « إنني أبحث عن قطعة من الذهب الأبيض، لم أستطع أن أجدها في أي مكان، وسيضر بني سيدي إذا لم أحضرها إليه.»

قالت الأرنب: «لتمض معي، وسأقودك حيث هي، فأنا أعرف أين تنزوى، ولأي سبب كان ذلك.»

وهكذا ذهب طفل الكوكبة مع الأرنب، فانظر.. لقد اح في شق شجرة من أشجار البلوط قطعة الذهب الأبيض، التي كان يبحث عنها، فامتلأ قلبه بالفرح، وقبض عليها بيده، وقال للأرنب: « لقد رددت المعروف الذي عملته فيك مرات عديدة، والجميل الذي أظهرته لك وفيتينيه مائة مرة.»

قالت الأرنب: «لا.. ولكن كما عاملتني عاملتك.» وقفزت بعيدا وسار طفل الكوكبة إلى المدينة.

وكان قد جلس على باب المدينة رجل مجذوم، تدلت على وجهه قلنسوة من كتان أشهب لونة، ومن مقلتيه توهجت عيناه كأنهما جمرتان منتقدان وما أن رآه حتى قرع طاساً، وصلصل بجرسه، وصاح: « هب لى قطعة من النقود، فاني قد أموت جوعا، ولقد ألقوا بي خارج المدينة، ولم يشفق على إنسان.»

صاح طفل الكوكبة: « واحسرتاه ! ليس لدي في كنانتي غير قطعة واحدة من النقود، وسيضر بني سيدي إذا لم أحضرها إليه، لأني عبده المملوك.»

ولكن المجذوم تضرع إليه، وتوسل إليه حتى أشفق عليه الصغير، وأعطاه قطعة الذهب الأبيض.

وفتح له الساحر حين أقبل إليه، وأدخله في منزله، وقال له: « أمعك قطعة الذهب الأبيض ؟»

قال طفل الكوكبة: «ليست معي..»

فانهال عليه الساحر، وألهب جسمه ضربا، ووضع أمامه إناء ليس فيه شيء وقال له: « لتأكل.» وقدحا فارغا، وقال له: « لتشرب.» وألقي به في الخزانة المظلمة.

وأقبل علية الساحر في الغد، وقال له: « سأحتفظ بك كملوكى، وسأضربك ثلاثمائة سوط إذا لم تحضر لي اليوم قطعة

الذهب الأصفر.»

وهكذا ذهب طفل الكوكبة إلى الغابة، وبحث طول النهار عن قطعة الذهب الأصفر، ولكنه لم يجدها في أي مكان ب نجلس عند مغيب الشمس، وأخذ يبكي.. فأقبلت عليه وهو يبكي الأرنب الصغيرة، التي خلصها من الشرك، وقالت له: « لماذا تبكي ؟ وعن أي شيء تبحث في الغابة ؟»

قال طفل الكوكبة: « إلى أبحث عن قطعة من الذهب الأصفر، تختبئ هنا، وسيضر بنى سيدى، وسيحتفظ بي كبد مملوك إذا لم أحضرها إليه.»

صاحت الأرنب: « لتتبعني.» وأسرعت في الغابة حتى وصلت غدير ماء، كانت في قاعه قطعة الذهب الأصفر.

قال طفل الكوكبة: «كيف أشكر لك ؟ فهذه هي المرة الثانية، التي تغيثيني فيها.»

قالت الأرنب: « لا.. ولكنك عطفت على أولا..» وعدت مبتعدة.

وأخذ طفل الكوكبة قطعة الذهب الأصفر، وأسرع إلى المدينة، ولكن المجذوم رآه مقبلا، نجرى للقائه، وركع أمامه، وصاح « أعطني قطعة من النقود و إلا فسأموت جوعا.»

فقال له الصغير: « ليس لدي في كنانتي غير قطعة واحدة من الذهب الأصفر، وسيضر بنى سيدى، وسيحتفظ بي كعبده المملوك إذا لم أحضرها إليه ..!»

ولكن المجذوم تضرع إليه حتى أشفق عليه الصغير، وأعطاه قطعة الذهب الأصفر.

ولما أقبل على الساحر فتح له، وأدخله في المنزل، وقال له: «أمعك قطعة الذهب الأصفر..؟»

قال طفل الكوكبة: « ليست معي.»

فانهال عليه الساحر، وألهب جسمه، وكبله بسلاسل من حديد، وألقى به ثانية في خزانته.

وأقبل عليه الساحر في غده، وقال له: « سأطلق سراحك اليوم إذا أحضرت لى قطعة الذهب الأحمر، ولكني سأقتلك حتما إذا لم تأتني بها»

وهكذا ذهب طفل الكوكبة إلى الغاية، وأخذ يبحث عن قطعة الذهب الأحمر طول النهار. ولكنه لم يجدها في أي مكان، وفي المساء جلس هنالك، وأخذ يبكي.. وبينما كان جادا في بكائه أقبلت عليه الأرنب الصغيرة، وقالت له: « إن قطعة الذهب الأحمر التي تبحث عنها توجد في كهف خلفك، فلا تنتحب وكن فرحا.»

صاح طفل الكوكبة: «كيف أشكر لك.. فهذه هي المرة الثالثة التي تغيثينني فيها ..)

قالت الأرنب: « كلاً.. ولكنك حننت عليّ في بادئ الأمر.» وذهبت مسرعة وهي تبتعد عنه.

ودخل طفل الكوكبة الكهف، ووجد قطعة الذهب الأحمر في ركنه النائى، فوضعها في كنانته، وأسرع إلى المدينة، وما رآه المجذوم آتيا من بعد حتى وقف في منتصف الطريق، وصاح: « إعطاني قطعة الذهب الأحمر وإلا فسأموت جوعا.» وأشفق عليه الصغير مع أن قلبه كان مفعماً بالألم، لأنه كان يعلم أي مصير سيء ينتظره، وأعطاه قطعة الذهب وقال: « إنك لفي حاجة ماسة إليها أكثر مني.»

ولكن تأمل.. فحين عبر طفل الكوكبة عتبة باب المدينة، انحني له الحراس، وقدموا له فروض الاحترام، وقالوا: « ما أجمل أميرنا» وتبعه جمع غفير من الناس، وأخذ يصيح: « إنه لا يوجد حقاً إنسان أجمل منك

وبكى طفل الكوكبة، وقال لنفسه: « إنهم يهزأون بي، ويستخفون بشقائى.» وكان الجمع كبيرة جدا حتى أن الصغير فقد من عظمه شعب طريقه، ووجد نفسه في ميدان كبير، كان به قصر ملك. وانفتح باب القصر، وأقبل عليه قواد المدينة العظام لكي

يستقبلوه، وأظهروا له تواضعهم وقالوا: « أنت أميرنا وابن ملكنا الذي كنا في انتظاره.»

قال طفل الكوكبة, « إني لست ابنا الملاك، ولكني طفل امرأة مسكينة. وكيف تقولون: إلى جميل فاتن، وأنا أعلم أني أقبح من تقع عليه العين..؟!»

حينئذ رفع الفارس، الذي رصدت عدته بأزهار مموهة بالذهب، ومن رسم على بيضته أسدا له أجنحة – محنه الصغير، وقال له: « كيف يقول أميري أنه ليس جميلا..!»

فنظر الصغير، ورأى أن محياه أصبح جميلا كما كان من قبل، وعادت إليه طمأنينته ولمح ذلك في عينيه اللتين لم يكن قد رآهما.

وركع أمامه الكهنة، والقواد العظام، وقالوا: « لقد أنبأنا أجدادنا أنه سيأتي في هذا اليوم من يحكمنا، فليأخذ أميرنا هذا التاج، وهذا الصولجان، وليكن بعدله ورحمته ملكا علينا.»

ولكنه قال لهم: « أنا لا أستحق ذلك، فقد رفضت أمي التي ولدتني، ولن أهدأ حتى أجدها، وأعلم أنها قد غفرت لي خطيئتي ؛ ولهذا فاتركوني لأذهب، لأنه يجب على أن أطوف في الدنيا، ولن أمكن هنا مع أنك أتيتم لي بالتاج والصولجان..»

وبينما كان يتحدث أدار وجهه عنهم ليتجه إلى الطريق، التي

تؤدي إلى باب المدينة، فلاح المرأة المسكينة بين الجمع الغفير، الذي أحاط بالجند يقف بجانبها الرجل المجذوم الذي كان يجلس على قارعة الطريق.

فانفجرت من شفتيه صيحة فرح، وجرى مسرعا أمام أمه، وقبل جراح قدميها، و بلاهما بدموعه، ومسجد، وأخذ يبكي كن انفطر قلبه، ثم قال: « أمي.. لقد رفضتك في ساعة كبريائى، فاقبليني في ساعة ذاتى... أمي.. لقد منحتك الكراهية، ألا فامنحيني الحب ! أمي.. لقد نبذتك.. فاقبلى طفلك الآن..! ولكن المرأة المسكينة لم تجبه ببنت شفة.

ومد راحتيه، وطوق ساقى المجذوم البيضاوين، وقال له: « ألم أعطك من صدقاتى ثلاث مرات.. أطلب من أمي أن تكلمني مرة واحدة..» ولكن المجذوم لم يجبه.

وبكى ثانية، وقال: « أمي.. إن آلامي أعظم من أن أحتملها فاغفري لي، واتركيني لأعود إلى الغابة..!»

فوضعت المرأة المسكينة يدها على رأسه، وقالت له: « لتقم..) ووضع المجذوم يده على رأسه، وقال له: « لتقم.» أيضا. فوقف على قدميه، ونظر إليها، ولقد كانا الملك والملكة

قالت له الملكة: « هذا هو والدك الذي قد أغثته.»

وقال الملك: « هذه هي أمك، التي غسلت قدميها بدموعك.»

وانحنيا على عنقه فقبلاه، وذهبا به إلى القصر، وألبساه الكسوة الجميلة، وتوجا رأسه بالتاج، ووضعا الصولجان في يده، فكر المدينة التي تقع على النهر، وكان سيدها.

ولقد أظهر العدل والرحمة للناس جميعا، وطرد الساحر الشرير، وأرسل الهدايا الثمينة إلى الخطاب وزوجته، وأكرم أبناءهما، ولم يعد يؤذي الطير أو الحيوان، ولكنه على الناس الحب، والشفقة، والإحسان ؛ ومنح الفقراء الطعام، وستر المرأة، فكان هنالك في المدينة الأمن، والسعادة.

ومع أنه لم يحك طويلا، إلا أن آلامه كانت عظيمة، فقد كان امتحانه قاسيا ومات بعد ثلاث سنين، وحكم بالظلم من جاء بعده.

الملك الشاب

كان ذلك مساء اليوم الذي خصص لتتويجه، وقد جلس الملك الشاب الوحيدة في حجرته الجميلة، وتركه أفراد حاشيته بعد أن حنوا رءوسهم إلى الأرض، إتباعا للعادة الشائعة في ذلك العصر، ورجعوا إلى قاعة القصر الكبرى، لكي يحصلوا الدروس الأخيرة على أستاذ الأدب الملكية، فقد كان من بينهم من لم يزل على عاداته الفطرية، التي هي بالنسبة للرجل من أفراد الحاشية – وأقولها هنا مرغا – شيء قبيح جدا.

والفتي.. إذ لم يكن الملك إلا فتى سنه ست عشرة سنة – لم يحزن لفراقهم، واستلقي في آهة عميقة على وسائد فراشة المطرز، جاحظ العينين فاغر الفم، كأنه عروس غاب سمراء، أو حيوان صغير أمسك به الصيادون حديثا من الغابة.

والحقيقة أن الذين عثروا عليه: هم الصيادون، صدفة عارى الأطراف، في يده مزمار ؛ يتبع قطيع ذلك الراعي الفقير، الذي رباه، ونشأه، و يعتقد خطأ أنه ابناً له.

لقد كان ابناً غير شرعي للبنت الوحيدة الملك عجوز، تزوجت سرا من رجل وضيع الأصل، قال بعض الناس عنه: إنه أجنبي،

أحبته الأميرة الصغيرة، لأنه سحر قلبها بنغمات عوده السحرية، بينما يقول الآخرون: إنه ابن أحد الفنانين، الذين قدموا من ريميني، أكرمت الأميرة مثواه، فاختفي فجأة من المدينة، تاركا عمله في الكاتدرائية غير تام، ولكن بعد أسبوع من ولادته شرق من أمه بينما كانت نائمة، ووضع تحت رعاية فلاح، وزوجه، لم ينجبا نسلا، وهما يعيشان في مكان بعيد في الغابة، على مسيرة أكثر من يوم من المدينة، ولقد قرر طبيب القصر، أو كما أوعز بذلك بعض الناس: أن هذا الحادث بلية وطاعون، فأعد لذلك سم إيطالي زعاف وضع في كأس من الخمر المعتقة، أعدمت بها الفتاة الشاحبة التي ولدته، بينما سار الرسول الأمين، والطفل على سرج حصانه، حتى وصل منزل الراعي ؛ فانحنى من فوق جواده المجهد، وقرع باب الكوخ.

أما رفات الأميرة فقد أدرج في قبر عار، كان قد حفر في ساحة كنيسة مهجورة، بجوار أبواب المدينة.. في قبر قيل: إن به رفات شاب صغير ذى قسمات أجنبية غريبة، ربطت يداه إلى ظهره بقيد مجدول وكان صدره مثخنا بالجراح الحمر..

ولقد كانت الأحدوثة التي تهامس بها الناس مثل هذا، ولكن في قليل من المبالغة.

ولقد أمر الملك الشيخ حينما كان على فراش الموت باستدعاء الصبي، ولقد يكون ذلك إما لتوبيخ ضميره على خطيئته الكبرى،

أو لرغبته في ألا يخرج الملك من صلبه، وفي انعقاد مجلس الشورى اعترف بالفتى كولى للعهد.

ويبدو أنه من أول لحظة من لحظات معرفته قد أظهر بوادر إعجاب غريب بالجمال، قدر أن يكون لها تأثير عظيم على حياته.

ولقد تحدث من رافقه إلى حفلات الرقص ممن تكفل بخدمته عن صيحة الفرح، التي كانت تتعالى من شفتيه، حين رأى الحلة الفخمة والجواهر الثمينة التي أعدت له، وعن المرح العنيف الذي غمره حين ألقى بدرعه الجلدية الخشنة، وسترته الجلدية أيضا.

وفقد في بعض الأحيان حرية الغابة، وكان يبدو دائما ضجراً حفلات القصر المملة، التي كانت تستغرق أغلب ساعات النهار.

ولكن القصر الملكي الجيب (جويوس) كما أطلقوا عليه، والذي وجد فيه نفسه السيد ظهر له دنيا جديدة، بألوان المسرة والبهجة، وما كان ينفلت من قاعة مجلس الشورى، أو المقصورة الخاصة، حتى يعدو نازلا على الدرج، الذي قد من مرمر لامع، تزينه سباع من البرنز المذهب، وكان يهيم على وجهه من قاعة إلى قاعة، ومن جناح إلى جناح، كأنه

رجل يفتش في آيات الجمال عن ترياق يخفف آلامه المبرحة، وينشله من علّته.

وفي أثناء هذه الرحلات الاستكشافية – كما كان يطلق عليها – ولقد كانت حقا في رأيه رحلات حقيقية، خلال أرض عجيبة – يرافقه فيها غلمان غيد، صبوحو الوجه، مُصفَفّو شعر الرأس، في أردية فضفاضة، وشرائط مرفرفة، ولكنه كثيرا ما كان وحيدا، يتأمل بفطرة نافذة إلهية، ذلك لأنه من الخير أن تدرس أسرار الفن في الخفاء، لأن الجمال كالحكمة، يعشق العابد المنطوي على نفسه.

ولقد تنوقلت أخبار كثيرة من حالته في هذه الحقبة وقالوا: إن نبيلا هرقلي الجسم، أقبل بدثار رائع أحمر، كهدية من مدينته للملك لمحه راكعا في خشية ووقار، أمام آية عظيمة جلبت حديثا من البندقية، تميط اللثام عن عبادة آلهة جدد.

وافتقد ساعات عدة، و بعد بحث طويل عنه، وجد في خلوة صغيرة في أحد أبراج القصر الشمالية، محملقا كأنه في غيبوبة، في خريدة إغريقية نقشت عليها صورة أدونيس.

وذهبت القصة إلى أنه لمح وهو يضع شفتيه الملتهبتين على جبهة أثر قديم، وجد في قاع النهر أثناء بناء القنطرة الحجرية، وكان يحمل اسم مملوك بيثيابيد هادريان.

وقضى ليلا بأكمله يتأمل أثر ضوء القمر على تمثال من الفضة لأنديميون.

ولقد كانت الأشياء الثمينة النادرة فتنة عظيمة له، فأرسل

التجار العديدين رغبة منه في اقتناها: جماعة لكي يشتروا الكهرباء من أهل البحار الشمالية، وجماعة إلى مصر لكي ينقبوا عن الجواهر الخضر النادرة ذات الصفات السحرية، التي لا توجد إلا في مقابر الملوك، وجماعة إلى فارس لكي يبتاعوا البسط الحريرية، وأواني الخزف المزركشة، وجماعة إلى الهند لكي يحصلوا على الحرير، والعاج، والزمرد، وأساور الحلى، وعود الصندل، والميناء الأزرق، وعمامات الصوف الناعمة.

ولكن الذي شغل باله أكثر من هذه الأشياء جميعا هو الثوب، الذي كان عليه أن يلبسه في حفلة تتويجه، الثوب المطرز بالقصب المذهب. والتاج المرصع بالياقوت، والصولجان ذو الفصوص، والنقوش اللؤلئية.

ولقد كان حقا يفكر في هذه الأشياء آناء الليل، بينما كان مستلقيا على فراشه الوثير، متأملا كتلة الخشب التي تحترق في المصطلى.

وسلمت إليه تلك الآيات، التي أبدعتها أيدي أشهر متفنني العصر، وأصدر أوامره لكي يكد كل ذي حرفة آناء الليل، وأطراف النهار، وأن يبذل المختصون أقصى ما يستطيعون بحثا في أرجاء الأرض عن الجواهر التي تلزم عملهم.

ولقد تخيل نفسه واقفا أمام مذبح الكاتدرائية في ثياب الملك،

فعبثت على شفتيه ابتسامة الصبا، وترددت هناك، وأضاءت في بهاء نظرات عينية.

وبعد لحظات قام من مجلسه، وانحنى على نقوش البرج، وأخذ يتأمل الحجرة التي يتخللها الضوء الخافت، والتي كانت جدرانها موشاة بطنافس عينة، تبرز رفعة الجمال.

وكان هنالك في أحد أركانها صوان كبير، رصع بالخرز، والعقيق، وتجاه النافذة وضعت خزانة عجيبة، لها غطاء خشبي، نقش عليه مسحوق الذهب المخلوط بالفسيفساء، وقد وضعت عليه أقداح فاخرة، صنعت من زجاج فينيسيا، ومن بينها كأس من الزجاج المجزع، وعلى ملاءة المخدع رسم ورد ذابل كأنه مستسلم للنوم.

وكان هنالك قصبتان من العاج المنقوش، ترفعان ستائر العرش المخملية، حيث تشرئب من تحتها حزم من ريش النعام، كأنها جفاءة بيضاء تجاه النقوش الفضية الداكنة التي تزين السقف.

ورفعت نرجسة ضاحكة من البرنز الأخضر مرآة لامعة فوق رأسها، وكان على الخوان زهرية من القيشاني.

وإنه ليرى الآن خارج النافذة قبة الكاتدرائية الضخمة، التي تبدو كجفاءة فوق المنازل ذات الظلال، والحراس المجهدين، وهم يتنقلون فوق سطح البناء المغطى بالضباب الذي يقع في جوار النهر، وكان يغني في مكان بعيد بلبل في بستان.

واقتحم النافذة المفتوحة آنئذ نسيم عطر من أزاهير الياسمين، فعرك الملك جبهته، وأمسك بالعود، وترك أنامله تعبث بالأوتار.

وأغمضت عيناه أجفانها الثقيلة، وأصابه إجهاد عنيف، وهو لم يحس من قبل بمثل هذا الشعور، أو تلك الغبطة الكاملة التي أضفاها عليه سحر الروائع الجميلة وسرها.

ولما أعلنت ساعة البرج انتصاف الليل لمس جرسا، فدخل غلمانه، وخلعوا ثيابه بعناية كبيرة، وضمخوا يديه بماء الورد، ونشروا الأزهار على وسادته، و بعد ذلك بلحظات قليلة، تركوا الحجرة، وغرق هو في سبات عميق.

وبينما كان ينط في نومه رأى فيما يرى النائم حلما.. رأى أنه كان واقفا في فناء طويل، واطئ السقف، ومن حوله ضوضاء، وجلبة تنبعث من أنوال النسيج، وقد أطل ضوء النهار الهزيل من خلال النوافذ، ليريه أجسام النساجين الهزيلة، منحنية على مناضدهم وقد جنى على ألواح الأنوال أطفال مرضى بوجوه شاحبة، وكانوا إذا اصطدمت بكرات الخيط بالسداة، يرفعون المضارب الثقيلة، و إذا توقفت البكرات يسقطون المضارب لكي تضغط على الخيوط.

ولقد عضهم الجوع بنابه، وارتعدت راحلتهم النحيلة، واضطربت. وجلست نسوة كاشفات الوجوه أمام منضدة يخطن.

وامتلأ المكان برائحة كريهة، فكان الهواء فاسدا ثقيلا على النفس، والجدران ترشح، وتنز.

وأقبل الملك الشاب على أحد النساجين، ووقف بجانبه يراقبه، فنظر إليه النساج في غضب، وقال: « لم تراقبني ؟ هل أنت جاسوس نصبك علينا سيدنا..؟!»

سأل الملك: «من سيدكم؟»

صاح النساج في مرارة: « سيدنا.. إنه رجل مثلي.. ولا توجد بيننا إلا هذه الاختلافات: فهو يلبس ملابس ناعمة، بينما ألبس أنا الخرق البالية، و بينا أنا ضعيف منهوك القوي من الجوع، هو يشكو كثيرا من التخمة.»

قال الملك: «الأرض متاع، ولست أنت عبداً لأي إنسان.»

قال النساج: « إن القوى في الحرب يستعبد الضعيف، وفي السلم يستعبد الغني الفقير، لذا يجب علينا أن نعمل لنعيش، وهم يعطونا أجوراً تافهة لكي تموت.. إننا نكد من أجلهم طول النهار، وهم يكدسون الذهب في خزائنهم، و إن أطفالنا لموت قبل آجالها، ووجوه أولئك الذين نحبهم تتجهم لنا. نحن نتعهد الكرم، وغيرنا يشرب النبيذ. نحن نبذر الحب، وموائدنا خالية من القوت، نحن مقيدون بسلاسل مع أنه لا تراها العين.. نحن عبيد مع أن الناس يطلقون علينا أحرارا..!»

قال الملك: « أهذه حالكم جميعاً ؟»

قال النساج: « نعم.. إنها حالنا جميعاً.. حال الشاب كما هي حال الكهل، حال النساء كما هي حال الرجال، حال الأطفال كما هي حال أولئك الذين بلغوا سن اليأس، ولقد سحقنا التجار، ولا بد لنا من أن نعمل بما يأمرون.. ولقد يخب القسيس و يعظ الناس، ولكن لا يهتم بنا أحد.. ويزحف علينا الفقر في أزقتنا بعيونه الشرهة، وتلاحقه الرذيلة بوجهها المحموم، وتوقظنا الفاقة في الصباح، و يجالسنا الخزي في المساء..!! ولكن هل تعنيك هذه الأشياء، وأنت لست فردا منا، و إن وجهك لسعيد سعيد؟!»

وازور عابساً، وألقي بكرة الخيط في النول، فرأى الملك الشاب أنها ملئت بخيط ذهبي، فاعتراه فزع مروع، وقال للنساج: « أي ثوب هذا الذي تغزله ؟»

قال النساج: « إنه ثوب لتتويج الملك الشاب، فهل يعنيك هذا؟»

فأرسل الملك صيحة عالية، وهب من نومه مذعورة، ونظر فإذا هو في حجرته الخاصة به، ومن خلال النافذة لمح القمر معلقة في الظلام.

ثم أغفي ثانية، ورأى فيما يرى النائم حلما، رأى أنه كان جالسا على ظهر سفينة ضخمة، يجدف عليها مائة من العبيد، وقد

جلس على بساط بجواره سيد السفينة، الذي كان أسود كالأبنوس، وكانت عمامته من الحرير القرمزي اللون، وقد تدلى من صماخى أذنيه حاق فضي كبير، وكان حول معصميه زوج من أساور العاج.

ولقد كان العبيد عاري الأجسام إلا من خرقة تستر عوراتهم، وكان كل فرد مربوطا مع رفيقه، والشمس المتوهجة ترسل أشعتها المحرقة عليهم، وأخذ السود يقطعون معبر السفينة ذهابا، و إيابا، يلهبونهم بأسياط من الجلد، فيمد العبيد سواعدهم الهزيلة، و يدفعون المجاديف الثقيلة في الماء فيتطاير منها الرذاذ.

ولما وصلوا إلى ميناء صغير، أخذوا يقيسون عمق البحر، وهبت ريح خفيفة من جهة الشاطئ، غمرت قاع السفينة، والشراء الممتلئ بالهواء بغبار أحمر، فأغار عليهم ثلاثة من البدو على بغال وحشية، ورموهم بالحراب فأعد سيد السفينة قوسه ونشابه، وأصاب بسهمه أحدهم في مقتله، فسقط صريعا بين أمواج الشاطئ، ولاذ رفاقه بالفرار، وأقبلت امرأة على جمل يسترها خمار أصفر، وأخذت تنظر بين حين وآخر إلى جسم المقتول.

وما كادوا يرسون على الشاطئ و يطوون الشراع، حتى أسرع ذوو السحنة السوداء إلى داخل السفينة، وأحضروا مرسا طويلا يتخذونه سُلَّماً، ولقد كان ثقيلا كأنه من الرصاص، ربط صاحب السفينة طرفيه في قائمين من الحديد، وأقبل السود، وأمسكوا

بأصغر العبيد سنا، وفكوا وثاقه، ووضعوا الشمع في منخر به، وأذنيه، وربطوا إلى حقوه حجرا كبيرة، فانساب في اضطراب على السلم، واختفي في اليم، فطفت بعد ذلك جفاءات على سطح الماء حيث كان يوالى ضرب الدف ساحر في مقدمها.

وظهر الغواص بعد فترة من الزمن على سطح الماء، وتعاق لاهثا بالمرس وكان في يده اليمنى لؤلؤة، أمسكها منه السود، ودفعوا به إلى اليم ثانية، وكان العبيد آنئذ قد أغفوا على المجاذيف.

وظهر الغواص مرات ومرات، وفي كل مرة يظهر فيها بالى بلؤلؤة جميلة، فكان سيد السفينة بزها جميعا، ويضعها في كنانة من الجلد الأخضر.

وحاول الملك الشاب أن يتكلم، ولكن كان يبدو أن لسانه كان ملتصقاً بأعلى حلقه، وشفتيه تأبيان الحركة، وتراشق السود بالسباب، وابتدأوا يتعاركون على عقد من الخرز البراق، وحام كركيان حول السفينة

ثم ظهر الغواص للمرة الأخيرة، وكانت اللؤلؤة التي أتى بها أجمل من لآلئ هرمز، وكانت على شكل القمر، وكانت أشد بياضا من نجم الصباح، ولكن وجهه كان شاحبا للغاية، وانفجر الدم من نخر به وأذنيه في اللحظة التي هوى فيها على ظهر السفينة، وارتجف جسمه قليلا، ثم توقف عن الحركة، فهز السود مناكبهم، وألقوا

برفاته في البحر.

فضحك حينئذ سيد السفينة، ولما بلغهم أخذ اللؤلؤة، وحين رآها ضغط على جبهته، ثم ركع وقال: « إنها ستكون لصولجان الملاك الشاب.» وأعطى إشارة لكي ترحل السفينة.

ولما سمع ذلك الملاك الشاب أرسل صيحة عالية، وهب من نومه، فرأى من خلال الناقدة أشباح الفجر الداكنة الرمادية تخنق النجوم الغاربة.

ثم أغفى ثانية، ورأى فيما يرى النائم حاما، رأى أنه كان يجوس خلال غابة مظلمة، مليئة بفواكه عجيبة و أزهار جميلة سامة، وكانت الأفاعي ترسل فحيحا حينما تمر به، والببغاوات تطير صائحة من غصن إلى غصن، وكانت السلاحف مستلقية في الوحل الحار، والأشجار مزدحمة بالقردة، والطواويس.

وأغذ سيره في الغابة حتى وصل إلى ظاهرها، وهناك لمح جمع من الناس يجدون أنفسهم بالعمل في قاع نهر جاف، ولقد ازدحموا حول صخرة شاهقة كأنهم العمل، وحفروا حفرا في الأرض ذهبوا فيها، وشق البعض الصخور بالفؤوس الكبيرة، وأخذ البعض يفتش في الرمال، ولقد مزقوا أوراق الكاكتوس عند جذورها، وداسوا الأزاهير القرمزية، وكانوا يسرعون هنا وهناك يهتف كل منهم بالآخر، ولم يكن هنالك فرد واحد منهم خاملا وكان يراقبهم الموت

والشح من خلال مغارة مظلمة.

قال الموت: « هب لي أيها الشح ثلث هذا الجمع، فأنا متعب مجهد،، واتركني بعد ذلك أذهب بعيدا عنك.»

ولكن الشح هز رأسه، وقال: « إنهم خدمي.»

فقال الموت: « أي شيء براحتك أيها الشح ؟»

قال الشح: « ثلاث حبات من الحنطة، وما ذا تعني بذلك.؟!»

صاح الموت: « هب لى إحداها لكي أزرعها في حديقتي.. هب إلى إحداها فقط، وسأذهب بعيدا عنك..»

قال الشح: « لن أعطيك منها شيئا.» وخبأ راحته في ثنية ثوبه.

فضحك الموت، وأخذ كأساً، وغمسها في غدير، فهبت منها الحمى، وانطلقت في غمار الجمع، فلقى ثلث الرجال حتفهم.

وتبع الحمى بعد ذلك ضباب بارد، سارت في ركبه ثعابين الماء.

ولما رأى الشح أن ثلث الرجال قد خر صريعا، ضرب على صدره، وبكى...!

لقد ضرب على صدره الشحيح، وأخذ يصيح: « لقد قتلت ثلث خدمي.. أغرب عن هذا المكان.. فهناك على جبال التتر حروب طاحنة، وملوك المتحاربين ينادونك.

ولقد عقر الأفغانيون ثوره الأسود، وهم يسيرون إلى المعركة، وضربوا بجرابهم على خرصانهم، ووضعوا على هامهم بيضات من حديد. وماذا تود من وادي هذا لكي تمكث فيه طويلا، إليك عنه، و إياك أن تأتي ثانية إلى هنا.»

قال الموت: « كلا.. ولكن حتى تهب لي منك حبة»

ولكن الشح أغلق راحته، وقرع أسنانة، وقال: «لن أمنحك مني شيئا.»

فضحك الموت، وأخذ حجرا أسود، وألقى به في الغابة، فأقبلت الحمى من خمائل الشوكران في ثوب من لهب، ومرت بين جموح الفعلة، ولامستهم، فكان كل رجل يصاب بلمسها يخر صريعاً، والحشائش كانت تذوى عند قدميها.

فارتجف قلب الشح، وأثال التراب على رأسه، وصاح:

« أيها الموت: إنك لقياس.. إنك لمتوحش.. إنه لتوجد مجاعة في بلاد الهند المسورة، ولقد جفت سدود سمرقند، ودنا القحط من مدن مصر ذات الأسوار، وأقبل الجراد عليها من الصحراء، والنيل لم يفض على جانبيه، والكهنة يقدمون القرابين لإيزيس وأوزيريس، فاذهب إلى أولئك الذين يطلبونك، واترك لى من يخدمني.»

قال الموت: «كلا، ولكن حتى هب لي منك حبة»

قال الشح: «لن أمنحك مني شيئا.»

فضحك الموت ثانية، وأحدث بأصابعه صفيرا، فأقبلت امرأة على من الهواء، كتبت على جبهتها الطاعون، وحام حولها سرب من البازى نحيل، غمر الوادي بأجنحته، ولم يترك أحدا يأخذ أنفاس الحياة.

فصرخ الشح في أرجاء الغابة باكياً، وقفز الموت على صهوة جواده الأحمر، وأخذ يركض بعيدة، ولقد كان ركضه يسبق الريح.

وزحفت جماعات التنين، والهوام من الوحل، وزحفت الحيات على كثبان الرمال، تب من الهواء بخياشمها.

فبكى الملاك الشاب، وقال: « من ترى يكون أولئك الرجال. ؟! وعن أي شيء يبحثون..؟!»

قال رجل كان يقف خلفه: « إنهم يبحثون عن ياقوت لتاج ملك.»

فأجفل الملاك الشاب، ولمح وهو يولى بوجهه رجلا في لباس حاج، ماسكا في يده مرآة فضية.

وقال، وقد شحب وجهه: « لتاج من من الملوك..؟!»

قال الحاج: « انظر في هذه المرآة، وسترى من يكون.»

ونظر الملك في المرآة، فرأى محياه، فأرسل صيحة مروعة، هب

على أثرها من نومه، وقد كانت أشعة الشمس المتلألئة تنساب في حجرته وكانت الطيور تغرد على أشجار حديقة القصر..

وأقبل قائد الحرس، ورئيس أركان حرب المملكة، وخرا ساجدين تحية له، وأحضر الغلمان الطيلسان المطرز بخيوط الذهب، ووضعوا أمام ناظر به التاج والصولجان.

لقد كانت حقا جميعها أروع من أي شيء رأته عينه.

فنظر إليهم الملك الشاب، وقد تذكر رؤاه، وقال الأعيان مملكته: « أبعدوا عنى هذه الأشياء، وخبئوها عن ناظري، ومع أن هذا اليوم هو يوم تتويجى، إلا أني لن ألبسها، فقد نسجت خيوط هذا الطيلسان على منزل الأسى برا حتى الألم البيضاوين، وهنالك الدم يجري في قلب الياقوتة، والموت يسمى في فؤاد اللؤلؤة، ثم أخبرهم بعد ذلك برؤاه الثلاث.

فلما سمعها رجال الحاشية، نظر كل منهم إلى الآخر، وتهامسوا قائلين: « إنه حقا لأحمق. فماذا يكون الحلم، إلا أنه حلم.. وما ذا تكون الرؤيا إلا أنها رؤيا..

هي ليست أشياء واقعية تستحق أن يبالي بها الإنسان، وماذا علينا أن نعمله لأولئك الذين يكدون من أجلنا..؟!

أيجب على الإنسان ألا يأكل الخبز حتى يرى الفلاح، أم عليه

ألا يشرب الحر حتى يحدث الحمار.. !»

وتحادث قائد الحرس مع الملك، فقال: « مولاي إلى أتوسل إلى سدتكم المالية أن تطرحوا جانبا هذه الأفكار السود، وأن تلبسوا هذا الطيلسان الجميل الرائع، وأن تعقدوا هذا التاج على جبينكما وكيف يعرف الناس أنكر الملك إذا لم تظهروا بملابس الملك ؟!»

فنظر إليه الملك الشاب، وقال له: «أيكون هذا حقا..؟! ألا يعرفون أنني الملك إذا لم أكن في ثياب الملك ؟!»

صاح قائد الحرس: « بلى يا مولاي.»

قال الملك: « إني أظن أن هنالك قوما يبدون أشباه الملوك، ولكن قد يكون ذلك كما تقول، ومع هذا لن ألبس هذا الطيلسان، ولن أضع على رأسي هذا التاج، ولأني أقبلت على هذا القصر، فسأرحل منه في الحال..»

وأمرهم أن يتركوه غير غلام واحد، احتفظ به كرفيق له يخدمه، وكان صبيا يصغره بعام.

ولما اغتسل الملك، فتح صندوقا كبيراً منقوشاً، وأخرج منه دثاراً من الجلد، وسترة من الأدم، كان يلبسها حينما كان يرعى الغنم، وأمسك في يده عصا غليظة.

فلما رآه الغلام الحدث على هذه الحال ففتح عينيه الزرقاوين

في دهش وقال باسم: «مولاى.. إلى أملح طيلسانكم، وصولجانكم، ولكن أين تري تاجكم..؟!»

فقطع الملك غصناً من الغاب كان قد تسلق على الشرفة، وجعله على شكل دائرة صغيرة، ثم وضعه على رأسه.

قال الملك: « إن هذه ستكون تاجى.»

وفي هذا الزي خرج من حجرته إلى القاعة الكبرى، حيث كان النبلاء في انتظاره.

وطرب لذلك النبلاء، وصاح بعضهم: « إن الشعب يا مولاى ينتظر مليكه، ولكنكم تبدون له كشحاذ ؟!»

وقال البعض الآخر في حنق: « إنه يجلب العار على الوطن، وإنه لا يستحق أن يكون ملكا علينا !!»

ولكنه لم ينطق ببنت شفة، وسار قدما، ونزل على السلالم الرخامية اللامعة، ومر خلال الأبهاء البرنزية، وامتطى صهوة جواده، وعدا بجانبه غلامه، ويمم شطر الكاتدرائية.

وضحكت العامة، وهزئت به، وقالت: « إن هذا هو حق الملك يخب على صهوة جواده..»

وكبح الملك الشاب عنان جواده، وقال: كلا؛ ولكني أنا الملك.» وحدثهم برؤاه.

فبرز رجل من الجمع الحاشد، وقال مغلظ القول: « ليعلم مولاي أن حياة المعوزين تنبعث من خلال رفاهية الأثرياء، وبجانب هو كبك نحن نعيش، و إن رذائلك لتمنحنا القوت. إن الكد من أجل مولى لقاس على النفوس، ولكن ألا نعمل من أجل مولى قاس أيضا، لأن الغربان حينئذ ستنهش لحومنا، فهل عندك علاج لهذه الأمور: أتستطيع أن تقول للمشتري يجب عليك أن تشترى بسعر مرتفع وأن تقول للبائع: يجب عليك أن تبيع بهذا السعر.. إلى أعتقد أن لا، فارجع إذا إلى قصرك يا مولاي، والبس ثيابك الرسمية، ولآلئك، وماذا تستطيع أن تصنع بنا، وبما تقاسية من آلام ؟!»

قال الملك الشاب: « أو لم يكن الأغنياء، والفقراء إخوة.. ؟»

قال الرجل متهكما: « بلى، وإن قابيل قد يكون لقب الأغنياء..!»

فترقرقت الدموع في عيني الملك الشاب، وواصل سيره بين همس الناس، وخاف لذلك غلامه، فتركه، وانصرف..

وما وصل باب الكاتدرائية حتى رفع الجنود حرابهم في وجهه، وصاحوا: « عن أي شيء تفتش هنا أيها الرجل ؟! ليس غير الملك يستطيع أن يمر من هذا الباب !!»

فاحمر وجهه من الغضب، وقال لهم: « إني أنا الملك..» وأزاح حرابهم، ودخل.

فقام أسقف الكاتدرائية في دهش، حينها راه مقبلا في ثياب راع، وذهب لكي يحييه، وقال له: « أهذه سماء ملك يا بني ؟! بأي تاج أستطيع أن أتوجك، وأي صولجان أستطيع أن أضعه في يدك ؟! إن هذا اليوم يجب أن يكون لك يوما مليئا بالابتهاج، لا بالذلة والضعة !!»

قال الملك الشاب: « أيستطيع الفرح أن يلبس ما قد تعود أن يلبسه الأسى ؟!» ثم قص عليه رؤاه الثلاث.

فحرك الأسقف حاجبيه إلى أسفل بعد أن سمها جميعا، وقال له: « إني شيخ يا بني، وقد أصبحت في آخر أيامي، وأعلم أن خطايا كثيرة ترتكب في الدنيا الفسيحة: فاللصوص يغيرون من الجبال، و يخطفون صغار الأطفال و يبيعوهم إلى المغاربة، والسباع تنتظر القوافل لكي تهجم على النوق،. والخنزير الوحشي يستأصل شأفة شجيرات الحنطة من الوادي، والثعالب تقضم الكروم التي فوق السفوح، والقراصنة يعيثون فسادا على شاطئ البحر، ويحرقون سفن الصيادين، و يسلبونهم شباكهم، وحول العيون المعدنية يعيش المجذومون في بيوت من القصب المتشابك، حيث يفر الناس منهم ويجوس الفقراء خلال المدن، لكي يطعموا جنبا إلى جنب مع الكلاب ! أفتستطيع أن تمنع هذه الأشياء من أن تكون ؟ ! أوتستطيع أن تتخذهن المجذوم رفيق حياتك...؟ ! أم تستطيع أن

تجالس الفقير المعوز..! أيمتثل السبع لأمرك..؟ ! أم تخضع لك الخنزير الوحشى..؟ ! أليس من خلق الشقاء أبعد منك إدراكا..؟ ومن ثم لن أمدحك يا بني على فعملتك هذه، ولكن أطلب منك أن ترجع إلى القصر، وتبهج للحياة، وتلبس ما يناسب الملك من ملابس، وسأتوجك بتاج من الذهب، وسيوضع في يدك الصولجان لؤلؤي، ولا تفكر في رؤاك، فشقاء العالم عبء ثقيل لا يحتمله رجل واحد، وحزن الدنيا ينوء به قلب إنسان...»

قال الملك الشاب: « أتفوه بذلك في هذا المكان..؟!» وابتعد قليلا عن الأسقف، وتسلق درجات المذيع، ووقف هنالك أمام صورة المسيح..

لقد وقف أمام صورة المسيح حيث صفت على جانبيه أوعية من الذهب عجيبة. وكان من بينها الكأس المقدسة، ممتلئة براح صفراء فاقع لونها، وجام به زيت سماوى. وركع أمام صورة المسيح، وقد أضاءت الشموع الهيكل بأشعتها الوهاجة، وتصاعد دخان البخور إلى القبة كأنه عقائص زرق مجمدة، وحتى رأسه في صلاته، فانسحب القسيسون بعيدا عن المذبح.

وانبعثت من الطريق فجأة هتافات عالية، ودخل النبلاء في خرصانهم إلى الكاتدرائية بسيوف مرفوعة، تزين رؤوسهم أوسمه الشرف صائحين د أن ذلك الملاك الذي يظهر في زي شحاذ..؟!

ذلك الصبي الذي يجلب العار على الوطن..!»

«لا بد لنا من قتله.. لأنه لا يستحق أن يكون ملكا علينا.»

وحنى الملك الشاب رأسه ثانية، وأخذ يتمتم في صلاته، وما أن انتهى منها حتى هب قائما، ونظر بوجه حزين.

وانسكبت عليه أشعة الشمس المنبعثة من خلال النوافذ المزخرفة، فنسجت حوله طيلسان كان أجمل بكثير من ذلك الذي خصص لتتويجه، وأورقت في يده العصا الجافة، وظهرت عليها أزاهير الزنبق، وأزهر الغصن الشوكي الذي توج به رأسه ورد أحمر.. نعم لقد كانت أزاهير الزنبق أشد بياضا من اللؤلؤ، وكانت سوقها من الفضة اللامعة، وكان الورد أشد حمرة من الياقوت، وكانت أوراقه من الذهب الإبريز.

لقد وقف هنالك في زي ملك، وتفتحت أبواب الهيكل المرصع بالجواهر، وانبعث من البلورة المنشورية العجيبة شعاع غامض غريب.

لقد وقف هنالك في زي ملك، حيث عمر المكان بجلال الله، و بدا كان القديسين هبوا من مشكاتهم المقدسة.

لقد وقف أمامهم في زي ملك، وانبعث النغم الموسيقي من الأرغن فنفخ في الصور، وأخذ المنشدون ينشدون، فركع الناس

خشية، وأغمد النبلاء سيوفهم، وأدوا فروض الاحترام، وشحب وجه الأسقف، واضطربت راحتاه، فركع أمام الملك الشاب صائحا: « إنك لأعظم من أن أتوجك أنا..»

وترك الملك الشاب المذيع الشاهق، وذهب إلى القصر وسط جموع الشعب المحتشد، ولم يجسر أحد على أن يَمُدَّ بصره لكي يرى وجهه، لأن محيّاه كان كَمُحَيّا مَلَك...

٣ من أغسطس سنة ١٩٤٩

القاهرة



الفهرس